سيغموند فرويد

التحليل النفسي للهستيريا

(حالة دورا)

ترجمة:

جورج طرابيشي

هذا الكتاب

□ تميز عـــام ١٩٠٥ في تاريخ حركة التحليل النفسي بعاصفتين : الأولى أثارها نشر « ثلاثة مباحث في نظرية الجنس » ، والثانية هبت في أعقاب نشر هذا النص المعروف بأسم « حالة دورا » .

□ والواقع أن العاصفتين كانتا متوقعتين . و « ثلاثة مباحث في الجنس » كان من المحتم أن يكون لها وقع الفضيحة ، وهذه الفضيحة وجدت ما يغذيها ويؤجج جذوتهـــا حين نشر فرويد تقريره عن حالة دورا . وكان من جملة المآخذ التي انهالت عليه انه خان سرّ المهنة ونشر على الملأ تفاصيل الحياة الخاصة والحميمة لمريضة كانت وضعت ثقتها فيه ، ولا سيما ان هـذه المريضة كانت صبية في الثامنة عشرة من العمر وان الميول التي عزاها اليها فرويد في تحليله كانت ميولاً منحرفة .

□ أهمية هذا الكتاب تنبع من كونه : أول تقرير مفصل وعيني عن التحليل النفسي لحالة عصابية ، علاوة على كونه تطبيقاً عملياً للنظريات التي عرضها فرويد في كتابه الكبير : « تفسير الاحلام » .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

سيغموند فرويد

التحليل النفسي للهستيريا
(حالة دورا)

ترجمة :

جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب :

FRAGMENT D'UNE ANALYSE D'HYSTERIE
(DORA)

IN
CINQ PSYCHANALYSES

PAR
SIGMUND FREUD
(1905)
PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE
PARIS 1954

الطبعة الاولى

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١

الفهرس

تــقــديم

تميز عام ١٩٠٥ في تاريخ حركة التحليل النفسي بعاصفتين : الأولى اثارها نشر « ثلاثة مباحث في نظرية الجنس »،والثانية هبت في اعقاب نشر « نبذة من تحليل حالة هستيريا » (دورا) .

والواقع ان فرويد كان توقع العاصفتين كلتيهما . و« ثلاثة مباحث في الجنس » ، وعلى الأخص المبحث الثاني عن « الجنسية الطفلية » ، كان من المحتم ان يكون لها وقع الفضيحة . وهذه الفضيحة وجدت ما يغذيها ويؤجج جذوتها حين نشر فرويد تقريره عن حالة دورا . وكان من جملة المآخذ التي انهالت عليه أنه خان سر المهنة ونشر على الملأ تفاصيل الحياة الخاصة والحميمة لمريضة كانت وضعت ثقتها فيه ، ولاسيما ان هذه المريضة كانت صبية في الثامنة عشرة من العمر وان الميول التي عزاها اليها فرويد في تحليله كانت ميولاً منحرفة : تعلق محرمي بالأب ، ونزوع الى علاقة جنسية مثلية مع امرأة متزوجة كانت في الوقت نفسه عشيقة للأب ، واخيراً علاقة ملتبسة مع زوج هذه المرأة بالذات .

والواقع ان فرويد تردد طويلاً ـ ست سنوات ـ قبل أن يحزم أمره على تقديم مصلحة العلم على مبادىء الأخلاق الطبية ، وبالتالي على نشر تقريره عن حالة دورا بدون استئذانها أو استئذان أهلها . وعلى الرغم من ان

فرويد عرض في تصدير تقريره الاسباب التي حملته على تجاوز اعتبارات الكتمان المهني ، فقد ظل ضميره يخزه على ما فعل على مدى سنوات عديدة .

وبديهي ان فرويد كتم اسم الأسرة ، كما ان الاسم الذي اطلقه على مريضته كان اسماً مستعاراً . ولا تشير حوليات التحليل النفسي الى ان الاسم الحقيقي لدورا قد عرف قط. والشيء الوحيد المعروف انها كانت ابنة لصناعي معروف ، وأنها كانت تشكو من اعراض هستيرية صغرى : ضيق في التنفس وسعال عصبي وانحباس في الصوت . وكان والدها نفسه قد عولج على يد فرويد من اضطراب عصابي ذي أصل زهري . وعلاوة على هذه الوراثة الأبوية ، كان الموقف في الأسرة موقفاً أوديبياً نموذجياً . فالأم ، التي كانت تشكو من « عصاب ربة البيت » المهجورة من قبل زوجها،كانت تصب كل محبتها المكبوحة على ابنها،على حين أن دورا، كانت انحازت بكل عاطفتها الى أبيها الذي كان بدوره عقد علاقة لامشروعة مع زوجة صديق له ؛ وهذا الصديق هو عينه الذي كان يغازل دورا ويعمل على إغوائها (قبّلها لأول مرة على شفتيها وهي في الرابعة عشرة من العمر) .

وعلاج دورا ـ الذي قطع قبل أن يعطي ثماره ـ لم يستمر سوى أحد عشر اسبوعاً . وهو لم يكن عملاً تحليلياً بالمعنى المتداول اليوم ، بقدر ما كان تحليلاً لحلمين حلمتهما دورا . ولهذا نوى فرويد في أول الأمر ان يصدر تقريره باسم « الحلم والهستيريا » . وفي الواقع كان تحليل حالة دورا امتداداً مباشراً لاطروحات **تفسير الأحلام** الذي أصدره فرويد عام ١٩٠٠ . وبطبيعة الحال ، فقد طرأ منذئذٍ تطور كبير على تقنية التحليل النفسي .

تبقى ملاحظة أخيرة ، وهي أن دورا نفسها لم تعلم بنشر التقرير عن حالتها إلا في عام ١٩٢٣ ، إذ أنها كانت تعيش في مدينة صغيرة من مدن الأقاليم ولا تعلم شيئاً عما يجري في فيينا . وطبيبها الخاص هو الذي

أطلعها بعد مرور ثمانية عشر عاماً على وجود التقرير . وهذا الطبيب هو نفسه الذي اكد أن دورا لم تعرف على مدى تلك السنوات المديدة تفتحاً حياتياً حقيقياً . وهذا ما ينقض النبرة المتفائلة التي كان فرويد أنهى بها تقريره حين أكد ان دورا التي اختارت في أول الأمر ان تهرب من الحياة الى المرض عادة في نهاية المطاف وقررت أن تهرب من المرض إلى الحياة . وبحسب ما رواه ذلك الطبيب ، ليست الحياة هي التي استردتها من جديد ، وانما المرض . وهذا بالضبط ما اباح لبعض نقاد فرويد ان يقولوا : تلك هي حدود العلاج التحليلي النفسي !

ج . ط.

تصـــدير

تأييداً لما تقدمت به من آراء في عامي ١٨٩٥ و١٨٩٦ حول التولد المرضي للأعراض الهستيرية وللسيرورات النفسية في الهستيريا أنشر هنا ، وبعد طول انقطاع ، تقريراً مفصلاً عن حالة مريضة وتاريخ علاجها . ومن ثم لا أجد مناصاً لي من أن أبدأ بهذا التمهيد الذي يرمي الى تبرير نهجي في العمل من نواحي عدة ، والى الحد من الآمال التي يمكن ان تُعقد على بياني هذا بحيث لا تتخطى نسباً معقولة .

لقد كان أمراً يدعو الى الأسف بالنسبة إلي أن أكون قد اضطررت الى نشر ما توصلت إليه من نتائج بعد أبحاثي ، ولاسيما انها نتائج تبعث على الدهشة ولا تحوز على الرضى ، دون ان تتاح لزملائي امكانية للتحقق من صحتها . لكن لعلي لا اركب مجازفة أقل خطورة إذ أضع الآن في متناول نقد الجميع بعضاً من المادة التي منها استخلصت تلك النتائج . ومهما يكن من امر ، فإنه سيتعذر علي تحاشي الاعتراضات : فلئن عيب علي في الماضي أني امتنعت عن ذكر أي شيء عن مرضاي ، فسيؤخذ علي اليوم أني أسرف في الكلام عنهم وأتجاوز الحد . وما أرجوه هو أن يأتيني النقد من قبل الأشخاص أنفسهم الذين أنحوا علي باللائمة من قبل، وان تغيرت هذه المرة الذرائع التي يحتجون بها . فإن كان الأمر كذلك ، فإني أعزف سلفاً

عن اية محاولة لحرمان أشباه هؤلاء النـقاد من فرصهم في إغداق التقريع والتأنيب .

على أن نشر ملاحظاتي يبقى يمثل بالنسبة إليّ معضلة يعسر حلها حتى ولو ضربت صفحاً عن المغرضين من الناس والمستغلقي الأفهام منهم . وهذه الصعاب هي ، من جهة اولى تقنية ، ونابعة ، من الجهة الثانية ، من طبيعة الظروف نفسها . فلئن صح أن مصدر الهسيتريا يكمن في الحياة النفسية ـ الجنسية الحميمة للمرضى ، وان الاعراض الهستيرية تعبر عن أخفى رغائبهم المكبوتة ، فإن ايضاح أية حالة من حالات الهستيريا يتحتم عليه وجوباً ان يميط اللثام عن دخائل تلك الحياة الحميمة وأن يهتك تلك الخفايا والأسرار . ومن المؤكد أن المرضى ما كانوا ليتكلموا قط لو خطر لهم ببال أن من المحتمل أن تُستغل يوماً اعترافاتهم استغلالاً علمياً ، ومن المؤكد أيضاً اننا عبثاً كنا سنطلب منهم في هذه الحال الاذن لنا بنشرها . ولا ريب في أن الموسوسين من الناس والوجلين منهم على حد سواء كانوا سيقدمون في هذه الشروط واجب الكتمان الطبي على كل ما عداه معربين عن أسفهم لكونهم لا يستطيعون إسداء الخدمة للعلم في مثل هذه الظروف بتنويره.بيد أني أرى أن على الطبيب واجبات لا تجاه المريض فحسب ، بل تجاه العلم أيضاً . وإذ أقول تجاه العلم فهذا يعني ، في واقع الأمر ، تجاه مرضى آخرين كثيرين يعانون أو سوف يعانون من الداء نفسه . وعلى هذا فإن نشر الطبيب ما يعتقد أنه يعرفه عن علة الهستيريا وبنيتها يغدو واجباً ، وامتناعه عن ذلك جبناً مخزياً ، وهذا شريطة ان يتحاشى إنزال ضرر مباشر بمريضه . وأعتقد أني فعلت كل ما هو واجب لأجنب مريضتي أذى من هذا القبيل . وقد اخترت إنسانة جرت حياتها ، لا في فيينا ، بل في بلدة صغيرة نائية ؛ ومن ثم فإن ظروف قصتها لا بد ان تكون مجهولة في فيينا . وقد حرصت من البداية أشد الحرص على كتمان سر العلاج ، بحيث أن زميلاً واحداً لا غير ، وهو أهل للثقة كلها ، تهيأ له أن يعرف أن تلك الفتاة كانت مريضتي . وقد انتظرت اربع سنوات بعد انتهاء

العلاج أرجىء نشر هذه الملاحظات ، حتى تأكد لي أن حياة مريضتي طرأ عليها من التغير ما أباح لي أن أستخلص أن الاهتمام الذي يمكن ان توليه للأحداث والأحوال النفسية التي أرويها هنا قد شحب وذوى . وبديهي أني لم أبـقِ على اسم واحد يمكن ان يهدي القارىء العادي الى الأثر . زد على ذلك ان النشر في مجلة علمية مختصة سيضعنا في منجى من تطفل القراء غير الاكفاء . ولست مستطيعاً بطبيعة الحال أن أحول بين مريضتي وبين ان تنتابها مشاعر مؤلمة ان شاءت المصادفة ان يقع بين يديها تقريري هذا . بيد أنها على كل حال لن تعلم شيئاً مما لا تعلمه من قبل ، وربما تساءلت ان يكن ثمة أحد غيرها قادر على ان يكتشف أن الأمر يتعلق بشخصها .

إني أعلم أنه يوجد في هذه المدينة على الأقل عدد غير يسير من الاطباء ممن سيقبلون ـ وهذا ما يبعث على الاشمئزاز ـ على قراءة هذا التقرير لا على أنه مساهمة في علم النفس المرضي للعصاب ، بل على انه رواية ملغزة لا غرض لها غير أن تسليهـم . وبوسعي أن أجزم لقراء من هذا النوع أن جميع الملاحظات والتقارير التي قد أنشرها لاحقاً ستكون ، بفضل ضمانات السرية عينها ، في مأمن من فطنتهم ، وان يكن ذلك من شأنه أن يقيد الى أبعد حد حريتي في استعمال مادتي .

في هذا التقرير ـ وهو الوحيد الذي أذنت لي به القيود التي يفرضها السر المهني والظروف غير الموائمة ـ تجري بمنتهى الصراحة مناقشة العلاقات الجنسية ؛ فالاعضاء والوظائف الجنسية تسمى بأسمائها ، وسيكون في مستطاع القارىء الحيي أن يستنتج من عرضي هذا أني لم أتردد في مناقشة مثل هذه الموضوعات وبمثل هذه اللغة مع فتاة صبية . أفلزام عليّ إذن أيضاً ان أبرىء نفسي من هذه التهمة ؟ إنني ببساطة اطالب لنفسي بما للطبيب النسائي من حقوق ، أو حتى بحقوق أكثر تواضعاً بكثير . اما الافتراض بأن أحاديث هذه كانت وسيلة ناجعة لإهاجة الرغبات الجنسية ولإشباعها فلن يكون إلا علامة على فسق غريب شاذ .

وهاكم على كل حال شاهداً يفصح عما في نفسي وذهني :

« إنه لما يبعث على الأسى أن يضطر المرء ، في عمل علمي ، الى إفساح مجال لاحتجاجات وتصريحات من هذا القبيل ، ولكن لا يلمني على ذلك لائم ، بل الأولى به ان يوجه اصبع اتهامه الى روح هذا الزمان الذي بفضله وصلنا الى عهد سعيد ما عاد فيه أي كاتب جاد يطمئن الى بقائه »[١].

هاكم الآن كيف ذللت ، في هذا التقرير ، الصعاب التقنية في بيان هذه الحالة . فهذه الصعاب جمة بالنسبة الى طبيب ملزم بأن يعالج يومياً من ستة الى ثمانية مرضى نفسيين ، وغير مباح له ، في اثناء الجلسة مع المريض ، تدوين ملاحظاته حتى لا يبتعث ريبة هذا الأخير وحتى لا يأخذه هو نفسه الارتباك في استيعابه المادة التي يلتقطها . والحق أني ما استطعت الى اليوم ان أجد حلاً للمشكلة المتعلقة بكيفية حفظ المعلومات برسم النشر لاحقاً متى ما كان تاريخ علاج الحالة طويل الأمد . وثمة عاملان يسرا لي الأمر في الحالة التي نحن بصددها : أولهما ان مدة العلاج لم تطل اكثر من ثلاثة أشهر ، وثانيهما أن إيضاح الوقائع تركز حول حلمين أحدهما جاءت روايته في منتصف المعالجة وثانيهما في نهايتها ، وقد تسنى لي تدوينهما مباشرة بعد الجلسة ، فقدما على هذا النحو مرتكزاً مكيناً لمنظومة التأويلات والذكريات المرتبطة بهما . وقد كتبت تقريري هذا بالاعتماد على الذاكرة ، في وقت كانت فيه ذكرياتي ما تزال طرية، وقد شحذها تفكيري بنشرها . وعلى هذا ، فإن تقريري ليس أميناً أمانة شريط التسجيل ، ولكنه على درجة عالية من مطابقة الحقيقة . ولم يتعرض أي شيء أساسي للتغيير ، خلا تسلسل الايضاحات في بعض المواضع حتى يأتي العرض أحسن تماسكاً .

أبدأ أول ما أبدأ بالاشارة الى ما يحتويه هذا التقرير وما لا يحتويه .

---

١ - ريتشارد شميث : **مساهمة في الايروسية الهندية** ، ١٩٠٢ ، المقدمة .

فقد كان العنوان الأصلي لهذا النص **الحلم والهستيريا** ، لأنه بدا لي ملائماً جداً لبيان كيف أن تأويل الأحلام يتشابك مع تاريخ العلاج ، وكيف يمكن عن طريقه سد ثغرات نساية الذاكرة وفهم الاعراض . وقد كنت ، لأسباب لا تخلو من وجاهة، سبَّقت في سنة ١٩٠٠ الأبحاث التي كنت أزمع نشرها عن علم نفس الأعصبة بدراسة مستأنية ومستفيضة عن الأحلام[٢]؛ وقد تبين لي من الاستقبال الذي قوبلت به هذه الدراسة مدى ضآلة التفهم الذي يبديه الزملاء حيال جهود كهذه . اما الاعتراض الذي ووجهتُ به ، وهو ان ملاحظاتي لا يمكن أن تتخذ أساساً لتكوين اقتناع قابل للتثبت منه ، نظراً الى أني لم أعرض موادي مسبقاً بحيث يمكن فحصها والتحقق من صحتها ، فهو في حالتنا اعتراض لا سند له ، لأن في وسع كل امرىء ان يرجع الى احلامه الخاصة ليجري عليها فحصاً تحليلياً ، وتقنية تأويل الأحلام سهل تعلمها بالرجوع الى التعليمات والأمثلة التي أعطيتها . وإني لأؤكد اليوم كما بالأمس ان الشرط المسبق الذي لا غنى عنه لفهم السيرورات النفسية في الهستيريا وفي غيرها من الأعصبة النفسية هو التعمق في دراسة مشكلة الحلم . ومن شاء التنصل من هذا المجهود التمهيدي فلن يقيض له ابداً ان يتقدم ، ولو خطوة واحدة الى أمام ، في هذا الضمار . اذن فالتقرير الذي بين ايدينا يفترض سلفاً معرفة بتأويل الأحلام ، فمن لا تتوفر له هذه المعرفةفلن تكون مطالعته باعثة له على الرضى . فهو سيُفاجأ بدل أن يتنور ، وسينزع بلا شك الى أن يسقط سبب دهشته على المؤلف فيعزو اليه خيالاً مسرفاً في شططه. والواقع أن هذا الطابع الباعث على الدهشة مرده الى ظاهرة العصاب نفسها ؛ وتآلفنا الطبي معه هو وحده الذي يحجبه عنا، ولكنه يعاود ظهوره مع كل محاولة للتفسير . وقد نتصور أن لا سبيل الى الخلاص من

---

٢ - الاشارة هنا الى كتاب فرويد **تفسير الاحلام** . « م » .

هذه الدهشة بصورة كاملة إلا إذا أفلحنا في استنباط العصاب بتمامه من العوامل المعروفة لدينا من قبل . بيد أن دراسة الأعصبة ، على العكس من ذلك ، هي التي ستحملنا ، على الأرجح ، على التسليم بجملة من المعطيات الجديدة القابلة لأن تصير شيئاً فشيئاً موضوعاً لمعرفة يقينية . غير أن الجديد هو ما يستثير مع ذلك على الدوام الدهشة والمقاومة .

على أنه من الخطأ أن يتصور المرء ان الأحلام وتأويلاتها تشغل مثل هذه المكانة الغالبة في جميع حالات التحليل النفسي .

لئن بدا التقرير الذي بين أيدينا موفقاً من حيث استخدام الأحلام ، فإنه في جوانب أخرى أفقر مما كنت أرجو . بين ان عيوبه تتصل تحديداً بالظروف التي جعلت نشره أمراً ممكناً . لقد أسلفت القول إنه يتعذر عليّ أن أتحكم تحكماً مطلقاً بمادة تمدني بها معالجة تدوم عاماً كاملاً . والحق أن تاريخ الحالة التي نحن بصددها أمكن تذكره والاحاطة به بجملته لأنه لم يمتد إلا أشهراً ثلاثة ؛ بيد ان نتائجه بقيت منقوصة من اكثر من وجه . فالعلاج لم يستمر وصولاً الى الهدف المرام ، بل أوقِف بناء على رغبة المريضة نفسها ، فما امكن الظفر إلا بنتيجة محدودة . فقد بقيت بعض النقاط الغامضة في الحالة على غموضها ، كما ان نقاطاً أخرى ما امكن إيضاحها إلا بصورة منقوصة ، ولو تواصل العمل لكان أدى بلا شك الى حل كامل للمعضلات جميعاً ، دونما استثناء . ومن ثم لا يسعني ان أقدم هنا سوى نبذة من التحليل .

ان القارىء الذي ألِف تقنية التحليل المعروضة في **دراسات في الهستيريا**[٣] قد تأخذه الدهشة من أنه ما امكن في اشهر ثلاثة الوصول الى حل كامل ولو للأعراض التي أخضعت للتحليل . بيد ان الأمر سيغدو مفهوماً متى ما أوضحت أن تقنية التحليل النفسي طرأ عليها تحول جوهري

٣ ـ كتاب كتبه فرويد بالمشاركة مع ج . بروير ، ونشر سنة ١٨٩٥ . «م» .

منذ كتابة **دراسات في الهستيريا** . فقد كان منطلق العمل يومئذ الاعراض ، وكان هدفه إزالتها واحداً بعد الآخر . لكني تخليت منذئذ عن هذه الخطة لأني وجدتها غير ملائمة لبنية العصاب المرهفة كل الارهاف . فأنا اترك الآن للمريض نفسه اختيار موضوع عمل اليوم ، وأنطلق في كل مرة بالتالي من السطح الذي يعرضه لا شعوره لانتباهه . وما أحصل عليه على هذا النحو مما يمكن ان يعين على إزالة عرض بعينه يأتيني في أجزاء ونتف ، متداخلة في أسيقة مختلفة وموزعة على فترات زمنية شديدة التباعد . لكن على الرغم من هذه النقيصة الظاهرة ، فإن الخطة الجديدة ، المتفوقة بكثير على القديمة ، هي بلا مراء الوحيدة الممكنة .

إزاء بعد نتائجي التحليلية عن الكمال ، ما كان امامي إلا أن أحذو حذو اولئك المنقبين الذين يوفقون الى أن يخرجوا الى النور ، بُعد طول انطمار ، مخلفات العصور القديمة التي لا تقدر بثمن ، وان عراها بتر وتشويه . فبالاستناد الى أفضل النماذج التي حصلت عليها من تحاليل اخرى اكملت ما كان ناقصاً ، بيد أنني ، مثل عالم الآثار الحي الضمير ، لم اغفل في كل حالة من الحالات التي لجأت فيها الى الترميم أن أوضح ما اضفته إضافة الى الاجزاء الاصيلة .

وثمة عيب آخر بعد كان من صنعي انا نفسي عمداً . فأنا لم أعرض بصفة عامة العمل التأويلي الذي لم يكن لي مناص من إخضاع متداعيات المريضة وتصريحاتها له ، وانما فقط نتائجه . فباستثناء الأحلام ، وخلا بعض المواضع القليلة لم ازح النقاب عن تقنية العمل التحليلي بل حرصت في تقريري هذا على جلاء البنية الخبيئة للعصاب والعوامل المحددة لأعراضه ، وما كان ثمة مناص من وقوع التباس وتداخل يندان عن انوصف فيما لو شئت أن أنجز في الوقت نفسه المهمة الاخرى . وكان لزاماً علي ، كيما أجد أساساً مكيناً أرسي عليه القواعد التقنية ، التي اهتديت الى اكثرها اختبارياً ، أن أجمع مادة تحاليل اخرى كثيرة . ولكن حذار مع ذلك من المبالغة في التشويه اللاحق بتاريخ هذه الحالة بنتيجة هذا

الاغفال للخطة التقنية . فالشطر الاصعب من العمل التقني ما تسنى لي القيام به مع هذه المريضة نظراً الى ان عامل «التحويل»، الذي سأتطرق اليه في نهاية هذا التقرير ، ما تأتى له أن يفعل فعله في اثناء هذه المعالجة القصيرة .

وثمة عيب ثالث لا تقع تبعته لا على المريضة ولا على المؤلف . فغني عن البيان ، بالفعل ، ان تقريراً واحداً ، حتى ولو كان كاملاً واكيداً لا ريب فيه ، لا يمكن ان يقدم أجوبة عن جميع الاسئلة التي تطرحها مشكلة الهستيريا . فليس في مقدوره التعريف بجميع انماط المرض ، وبجميع تشكلات بنية العصاب ، وبجميع العلاقات الممكنة بين النفسي والبدني في الهستيريا . وليس من المعقول ان نطالب هذه الحالة الواحدة بأكثر مما يمكن ان تقدمه . وأما من لا يزال يأبى حتى الآن بالاقتناع بالصحة العامة والشاملة للمعلَّلات الجنسية النفسية للهستيريا ، فأرجح الظن أنه لن يقتنع باطلاعه على تاريخ حالة واحدة ؛ والأولى به ان يعلق حكمه الى أن يكتسب ، بفضل مجهوده الخاص ، الحق في تكوين راي شخصي .

ملاحظة اضيفت سنة ١٩٢٣ ـ ان العلاج الوارد تفصيله هنا توقف في ٣١ كانون الاول ١٨٩٩ ، وقد دونت تقريري عنه في الاسبوعين التاليين ، لكني لم أنشره إلا في عام ١٩٠٥ . ولقد كان من المتوقع بعد اكثر من عشرين سنة من العمل اللاحق المتصل ان يطرا تعديل على تصوري لمثل هذه الحالة وعلى طريقة عرضي لها ، ولكن من غير المعقول بطبيعة الحال أن أحاول تحديث هذا التقرير وأن أسعى الى المواءمة بينه وبين الحالة الحاضرة لمعارفنا UP TO DATE بإدخال التصحيحات والاضافات اللازمة عليه . وعلى هذا فقد تركته على حاله ، كما هو ، ولم أصوب في نصه سوى الاخطاء التي وقعت فيها سهواً أو عن عدم دقة ، والتي لفت انتباهي اليها مترجماي الانكليزيان الممتازان المستر والمسز جيمس ستراتشي . اما فيما يتصل بالملاحظات النقدية التي بدت لي مسوغة ، فقد أوردتها في هوامش ملحقة بتاريخ هذه الحالة المرضية ، وبذلك يتأتى للقارىء ان يعلم اني ما

أزال متمسكاً بالآراء الواردة في النص ما دمت لا أتبعها بهوامش تنقضها . اما مشكلة الكتمان الطبي ، التي كانت موضع اهتمامي في هذا التصدير ، فلا داعي للاحتفال لها في عروضي لسائر الحالات المنشورة في هذا(٤) المجلد ، إذ أن ثلاثاً من هذه الحالات نشرت بموافقة صريحة من الأشخاص المعالجين(وفي حالة هانز الصغير بموافقة من أبيه) ؛ كما أن موضوع التحليل في الحالة الرابعة (شريبر) لم يكن شخصاً ، بل كتاباً كتبه هذا الأخير . أما فيما يتصل بدورا فقد بقي السر محفوظاً الى هذه السنة . فقد علمت منذ زمن يسير ، وكانت صلتي بها قد انقطعت من أمد بعيد ، انها وقعت فريسة المرض من جديد لأسباب أخرى وأسرَّت لطبيبها بأنها عولجت تحليلياً على يدي في صباها ؛ وهذه المسارّة سهَّلت على زميلي الفطن أن يتعرف فيها دورا ١٨٩٩ . ولئن لم تتمخض الشهور الثلاثة من العلاج يومئذ عن اكثر من حل للصراع القائم ، ولئن لم تتمكن من نصب حاجز دفاعي ضد الاصابة بالمرض لاحقاً ، فلن يكون في مقدور أي شخص منصف أن يضع اللائمة في ذلك على عاتق المعالجة التحليلية .

---

٤ ـ هو المجلد الثامن من الاعمال الكاملة لفرويد بالالمانية . وقد ضم ، علاوة على تاريخ حالة دورا ، اربعة تحليلات نفسية اخرى هي على التوالي **هانز الصغير** (تحليل رهاب لدى صبي صغير في الخامسة من العمر) ، **رجل الفئران** (ملاحظات عن حالة عصاب وسواسي)، **الرئيس شريبر** (ملاحظات تحليلية نفسية عن السيرة الذاتية لحالة بارانويا)، واخيراً **رجل الذئاب** (مقتطفات من تاريخ عصاب طفلي) . وسوف ننشر الترجمة العربية لهذه الدراسات الاربع تباعاً . «م» .

(١)

الحالة المرضية

كنت في **كتابي تفسير الاحلام** ، الصادر عام ١٩٠٠ ، قد أثبتّ ان الاحلام قابلة بصورة عامة للتأويل وللاستبدال ، متى ما أنجز العمل التأويلي ، بأفكار ذات شكل لا غبار عليه ، قابلة لأن تُدرج في موضع محدد من السياق النفسي ؛ وبودي ان أضرب في الصفحات التالية مثالاً على هذا الاستخدام العملي الوحيد الذي يبدو أن فـن تفسير الاحلام يسمح به .
وكنت ذكرت في كتابي[١]كيف تأتى لي ان أطرق مشكلات الحلم. فقد اعترضتني هذه المشكلات فيما كنت أحاول شفاء الاعصبة النفسية بطريقة خاصة من طرق الغلاج النفسي ؛ فعندما كان المرضى يروون لي ، ضمن سائر أحداث حياتهم النفسية ، أحلامهم التي كانت توحي بأنها تتطلب ان تُدرج في السلسلة الطويلة المتصلة الحلقات التي تبدأ بالأعراض المرضية وتنتهي بالفكرة المسببة للمرض ، تعلمت عندئذ كيف اترجم لغة الحلم الى نمط التعبير العادي والمباشر لفكرنا. هذه المعرفة ـ أستطيع ان اجزم بذلك ـ لا غنى عنها للمحلل النفسي ، إذ يمثل الحلم واحداً من الدروب التي يمكن ان تسلكها الى الوعي[٢]تلك المادة النفسية التي جرى

---

١ ـ تفسير الاحلام ، ١٩٠٠ ، ص ٦٨ ، الطبعة السابعة ، ١٩٢٢ ، ص ٧٠ .
٢ ـ او الشعور باللغة الاصطلاحية للتحليل النفسي ، علماً بأن اللفظ بها بالالمانية لكل من الوعي والشعور واحد . «م» .

كبتها ، لما يثيره مضمونها من نفور ، والتي حُجز عليها خارج الشعور ، فصارت بالتالي مسببة للمرض . زبدة الكلام ، إن الحلم هو واحد من **الدروب الجانبية التي يمكن بها تفادي الكبت** ، واحدة من الوسائل الرئيسية لما يسمى **بالتمثيل اللامباشر** في النفس والذهن . والنبذة التالية من علاج فتاة مصابة بالهستيريا ستسلط الضوء على الكيفية التي يتدخل بها تأويل الاحلام في العمل التحليلي . كما انها ستتيح لي في الوقت نفسه ان ادافع علناً ، ولأول مرة بالاعتماد على تفاصيل تحول دون أي سوء فهم ، عن آرائي في السيرورات النفسية للهستيريا وشروطها العضوية . فإذا ما توسعت في الموضوع وأفضت فيه ، فلا أحسبني بحاجة بعد الآن الى الاعتذار عن ذلك . فقد بات معلوماً الآن أن مواجهة ما تقتضيه الهستيريا من الطبيب والباحث لا تكون بمعاملتها بأزدراء متكلف ، بل على العكس عن طريق دراستها بتعمق وتعاطف .

الفن والعلم لا يكفيان
فالعمل يتطلب صبراً أيضاً[٣]

لو أني بدأت بعرض للحالة كامل متلاحم ، لكنت وضعت القارىء في موقف مباين تماماً لموقف الطبيب المراقب . فما يرويه أقارب المريض ـ وفي الحالة التي نحن بصددها والد تلك الفتاة التي لها من العمر ثمانية عشر ربيعاً ـ لا يعطينا سوى صورة شديدة الغموض عن مسار المرض . والواقع أني أبدأ العلاج بدعوة المريض الى ان يروي لي قصة مرضه وحياته كاملة ، ولكن ما أعمله على هذا النحو لا يكفي بعد لهديي إلى سواء السبيل.فهذا السرد الأول أشبه ما يكون بمسلك مائي غير صالح للملاحة،تارة تخنق مجراه الصخرة وطوراً ينقسم ويتفرع ويتبدد بين جزر من الرمال . وإني لا أملك إلا أن أعجب لشيء واحد وهو : كيف يتيسر

٣ ـ **غوتة فاوست** ، القسم الأول ، مطبخ الساحرة . «م» .

للمؤلفين ان يكتبوا تقارير واضحة متماسكة عن حالات المصابين بالهستيريا ؟ والواقع ان المرضى انفسهم يعجزون عن تقديم مثل هذه التقارير عن أنفسهم . حقاً انهم يستطيعون تزويد الطبيب بمعلومات وافية ومتلاحمة عن فترة بعينها من حياتهم ، ولكن لا تلبث ان تعقبها فترة اخرى لايفضون عنها الا بمعلومات سطحية تتخللها فجوات وألغاز.هذا ان لم تعقبها فترات بكاملها يحوطها إبهام شديد ولا تنيرهـا اية معطيات تمكن الافادة منها . وغالباً ما تكون العلاقات ، بما فيها الظاهرة منها ، متفككة ، كما يكون تسلسل الاحداث المختلفة متقطعاً .

فـي اثناء سرد المريض لقصته يبادر مراراً وتكراراً الى تصحيح تفصيل من التفاصيل ، أو تاريخ من التواريخ . ثم لا يلبث ، بعد طول تردد ، ان يعود الى توكيده الاول . وعجز المرضى هذا عن عرض تاريخ حياتهم بترابط وتماسك ، من حيث أنه يناظر تاريخ مرضهم ، ليس مجرد سمة مميزة للعصاب ، بل يرتدي ايضاً دلالة نظرية عظيمة الشأن[٤] . ومرد هذا العجز الى الاسباب التالية : أولاً ، إن المريض يحتفظ لنفسه بجزء مما يعرفه ومما كان يفترض فيه ان يرويه ، وهو إذ يمسكه فإنما عن وعي وقصد لأسباب تتصل بالخجل والحياء اللذين لا يكون قد تغلب عليهما بعد (التكتم ان كان الأمر يتعلق بشخص ثالث) . ذلك هو دور المراوغة الشعورية . ثانياً ، إن جانباً مما يعلمه المريض عن تاريخ مرضه ،

(٤) عهد احد الزملاء إلي يوماً بأخته لاعالجها نفسياً . وكانت قد تابعت خلال سنوات عدة ، بغير طائل ، علاجها كمريضة بالهستيريا (أوجاع ، واضطرابات في المشية والتنقل) . وقد بدت المعلومات الأولى متمشية مع هذا التشخيص . وفي أولى الجلسات طلبت الى المريضة ان تروي بنفسها قصتها . فلما سردتها لي سرداً واضحاً متماسكاً ، على الرغم من خصوصية الأحداث التي تكلمت عنها ، قلت بيني وبين نفسي ان الحالة لا يمكن ان تكون حالة هستيريا ، وأجريت على المريضة للحال فحصاً بدنياً دقيقاً ، فاكتشفت خراعاً TABES في درجة وسطى من التقدم ؛ وقد سجل وضعها تحسناً ملموساً فيما بعد حينما جرت معالجتها بحقن من الزئبق والزيت السنجابي ، على يد الأستاذ لانغ .

ومما يكون عادة في متناول إدراكه ، يغيب عنه اثناء سرده لقصته ، دون ان يكون قد تقصد ذلك ؛ وهذا هو دور المراوغة اللاشعورية . ثالثاً ، إن الأمر لا يخلو ابداً من نسايات حقيقية ، أي ثغرات في الذاكرة تطال لا الذكريات القديمة فحسب بل كذلك الذكريات الحديثة ، ومن نسايات كاذبة ، وهي تتمثل في أخطاء الذاكرة التي تتكون ثانوياً لتسد تلك الثغرات[٥] . وحتى حيثما تبقى الاحداث محفوظة في الذاكرة ، فإن الهدف الذي ترمي اليه النسايات سيتم بلوغه على نحو اكيد ومحقق متى ما التغت العلاقة ، وإنما عندما يتغير التسلسل الزمني للاحداث تنتفي العلاقة على نحو لا ريب فيه . ومن ثم فإن هذا التسلسل الزمني هو على الدوام العنصر الاكثر قابلية للتأذي بين عناصر الذاكرة ، كما أنه أسبقها إلى الوقوع تحت مفعول الكبت . وكثيراً ما تصادفنا ذكريات هي في الطور الاول من الكبت ، ان جاز التعبير ، ومن ثم تكون مشحونة بالشك . ثم لا يلبث هذا الشك في طور لاحق ان يخلي مكانه لنسيان او لذكرى كاذبة[٦] .

ثمة اعتبارات من طبيعة نظرية تحملنا على اعتبار حالة الذاكرة هذه لازمة محتومة للاعراض الهستيرية . وفي اثناء العلاج يكمل المريض ما أمسكه أو ما لم يرد الى خاطره ، وإن يكن معروفاً منه دوماً . وعندئذ لا يعود ثمة مجال للنسايات الكاذبة ، كما ان ثغرات الذاكرة تمتلىء . وانما متى قارب العلاج على النهاية يمكن أن ينبسط امام انظارنا تاريخ كامل ومتماسك ومفهوم للمرض . وان يكن الهدف العملي للعلاج إزالة جميع الاعراض الممكنة وإحلال أفكار شعورية محلها ، فإن ثمة هدفاً آخر ، وهو

---

٥ ـ ان النسايات AMNESIES والنسايات الكاذبة PARAMNESIES تجمع بينها علاقة متتامة . فحيثما تقع ثغرات كبيرة في التذكر ، تقل اخطاء الذاكرة . وبالعكس ، فإن اخطاء الذاكرة قد تموه ، للوهلة الاولى ، تمويهاً تاماً بعض النسايات .

٦ ـ اكسبتنا الخبرة القاعدة التالية : متى ما تردد المريض في سرده ، فمن الواجب ان نضرب صفحاً عن الحكم الذي يصدر عنه هو نفسه . واذا ما تردد المريض بين روايتين ، فعلينا ان نعتبر روايته الاولى هي الصحيحة ، وأن نفترض بالمقابل ان الثانية ناجمة عن الكبت .

الهدف النظري ، يوجب علينا ان نشفي ما أصاب ذاكرة المريض من تلف . وهذان الهدفان يتطابقان ؛ فإن تم بلوغ أحدهما تم ايضاً بلوغ الثاني ؛ فالطريق الذي يؤدي الى كليهما واحد .

ان طبيعة الاشياء التي تؤلف مادة التحليل النفسي تملي علينا أن نولي ، في الحالات التي ندرسها ، الشروط الاجتماعية والانسانية الخاصة التي يحيا في ظلها المرضى قدراً من الانتباه مماثلاً لذاك الذي نوليه للمعطيات البدنية وللاعراض المرضية . ونحن نهتم ، أول ما نهتم ، بظروف المريض وعلاقاته العائلية ، وهذا ـ كما سنوضح عما قليل ـ لأسباب لا تتصل فقط بالاستعلام عن وراثتهم .

لقد كانت أسرة مريضتنا ، وهي فتاة في الثامنة عشرة من العمر ، تضم ـ عداها ـ والديها واخاً يكبرها بعام ونصف عام . وكانت الشخصية المهيمنة هي شخصية الأب ، ان بذكائه وسمات طبعه وان بظروف حياته ، وهي الظروف عينها التي حبكت لحمة التاريخ الطفلي والباتولوجي لمريضتي .ويوم شرعت بمعالجة الفتاة ، كان الاب يناهز على الخمسين . كان رجلاً متدفق النشاط ، فذ الموهبة ، من كبار رجال الصناعة ، يرتع في بحبوحة من العيش من الناحية المادية . وكانت ابنته تكنّ له محبة دافقة ، وكان حسها النقدي ، الذي بكّر في الاستيقاظ ، قد تأذى مبكراً ايضاً من جراء بعض أفعاله وبعض سمات طبعه .

ولقد زادت محبتها لأبيها منذ عامها السادس بسبب ما عاناه من امراض خطيرة شتى . وقد أصيب وقتئذ بمرض السل ، فاضطرت العائلة الى نقل مكان سكناها الى بلدة صغيرة في اقاليمنا الجنوبية ؛ وهناك طرأ تحسن سريع على مرضه الرئوي ، غير أنه ارتئي أنه لا بد من الاقامة لفترة طويلة في تلك البلدة ، التي سأسميها ب ... ، تفادياً للانتكاس ؛ وهكذا بقيت بلدة ب المكان الرئيسي لسكنى الوالدين والطفلين لمدة عشر سنوات . وكان الأب ، بعد أن استرد صحته ، يتغيب بين الحين والآخر ليتفقد مصانعه ؛ وفي حمّارة الصيف كانت الأسرة تنتقل الى الجبل .

لما بلغت فتاتنا العاشرة من العمر ، أصيب والدها بانفصال في شبكية العين استدعى ان يمضي فترة علاجية في غرفة مظلمة . وقد تسبب هذا المرض في ضعف بصره ، ولكن المرض الاخطر منه وقع له بعد زهاء عامين . فقد انتابته نوبة من التخليط العقلي ، تلتها أعراض شلل واضطرابات نفسية طفيفة . واستطاع صديق ـ سندرس دوره فيما بعد ـ ان يقنع المريض ، حينما أصاب شيئاً من التحسن ، بأن يأتي الى فيينا مع طبيبه لاستشارتي . وقد وقفت متردداً لهنيهة من الزمن متسائلاً بيني وبين نفسي عما اذا لم تكن الحالة التي يشكو منها شللاً ذا أصل خراعي ؟ على أني انتهيت الى تشخيص إصابة وعائية VASCULAIRE متفشية ، وبما انه كاشفني بأنه كان قبل الزواج أصيب بعدوى معينة ، فقد وصفت له معالجة قوية ضد الزهري انحسرت على اثرها جميع تلك الاضطرابات التي كانت لا تزال باقية . وأرجح الظن ان هذا التدخل الموفق من جانبي هو الذي حمل الأب ، بعد اربع سنوات ، على ان يأتيني بابنته التي كانت تعاني من عصاب شديد ، وأن يعهد بها الي ، بعد عامين من ذلك ، لأتولى أمرها بالمعالجة النفسية .

وفي اثناء ذلك كنت قد تعرفت ، في فيينا ، الى أخت للمريض تكبره سناً ، وكانت تعاني على ما تشير الدلائل من شكل خطير من العصاب النفسي بدون أعراض هستيرية مميزة . وقد قضت هذه السيدة نحبها ، بعد حياة زوجية تعيسة ، من جراء هزال استفحل بسرعة وما امكن تحديد طبيعته .

وكان للمريض أخ يكبره سناً ايضاً ، التقيته عرضاً ، وكان عازباً ومصاباً بهجاس المرض .

كانت الفتاة ، التي تعهدتها بالعلاج وهي في الثامنة عشرة كما أسلفت ، تميل بعواطفها دوماً إلى أسرة أبيها ، وقد اتخذت ، منذ ان مرضت ، عمتها التي تقدم الكلام عنها قدوة ومثالاً . وما كان يخامرني شك أنا ايضاً في ان الفتاة تنتمي ، سواء أبمواهبها وذكائها المبكر أم

باستعدادها للمرض ، الى تلك الأسرة . وما قيض لي ان أعرف الأم . لكني وجدتني أتصورها ، بحسب المعلومات التي أمدني بها الاب والبنت ، امرأة غير مثقفة ، وعلى الاخص عادمة الذكاء ، صبت اهتمامها كله ، منذ مرض زوجها وما استتبعه من تباعد بينهما ، على البيت ، فصارت تقدم صورة لما يمكن ان نسميه « ذهان مدبرة المنزل » . فما كانت تتفهم صبوات ولديها ، بل كان شغلها الشاغل طوال اليوم تنظيف الشقة وترتيبها ، والعناية بالأثاث والادوات المنزلية ، الى حد بات من شبه المستحيل معه استخدامها والتمتع بها . ولا يسعنا الا أن نقارن بين هذه الحالة ، التي كثيراً ما نجد مؤشراتها لدى ربات البيوت السويات ، وبين الاشكال القهرية للاغتسال والنظافة . بيد ان هؤلاء النساء ، ومثلهن ايضاً والدة مريضتنا ، يغيب عنهن أي استبصار بالطابع المرضي لسلوكهن هذا ، ويفتقرن من ثم الى علامة أساسية من علامات « العصاب الوسواسي » . ولقد كانت الصلات بين الام والبنت مشوبة منذ سنوات بطابع غير ودود . فما كانت البنت تعير أمها اهتماماً ، بل كانت تنقدها بقسوة ، وتنأى بنفسها تماماً عن تأثيرها[٧] . وكان أخوها الوحيد ، الذي يكبرها بعام

---

٧ ـ لئن كنت لا اتصور ان الوراثة هي العامل الوحيد المسبب للهستيريا ، ولكني بالرجوع الى بعض كتاباتي السابقة (**الوراثة واتيولوجيا الاعصبة في مجلة علم الاعصاب** ، ١٨٩٦ ، المجلد ٦ ، وهو مقال يطعن في الاطروحة المشار اليها) أجدني حريصاً على الاشارة الى انه لا ينبغي ان يُفهم من ذلك اني أستخف بأهمية الوراثة في اتيولوجيا الهستيريا أو اني لا ارى من ضرورة لأخذها بعين الاعتبار . واننا لنلتقي لدى مريضتنا شحنة وراثية مرضية ذات وزن من خلال ما قدمناه من معلومات عن الأب وأسرته ؛ وحتى من يرى ان حالات باتولوجية من مثل حالة الأم مستحيلة بدون استعداد وراثي ، يستطيع ان يجد توكيداً لرأيه في وراثة مريضتنا . وثمة عامل آخر يبدو لي ابلغ دلالة بعد فيما يتصل بالاستعداد الوراثي ، او الجبلّي بالاحرى ، لدى فتاتنا . فقد ذكرت ان الاب كان أصيب بعدوى الزهري قبل زواجه . والحال أن نسبة مئوية عالية من مرضاي الذين عالجتهم بالتحليل النفسي يتحدرون من آباء كانوا مصابين بالخراع أو الشلل العام . ونظراً الى جدة طريقتي العلاجية لا يأتي الي من المرضى الا من يعانون من أخطر الحالات التي طال علاجها=

ونصف عام ، هو المثل الاعلى الذي اتجهت عزة نفسها في زمن مبكر الى التشبه به . وفي ابان السنوات اللاحقة فترت العلاقات فيما بينهما . وكان الفتى يحاول ما وسعه ان يتحاشى المشاحنات العائلية ؛ وحين كان يضطر مع ذلك الى اتخاذ موقف ، كان ينحاز الى جانب الأم . وعلى هذا المنوال وثّق التجاذب الجنسي المعهود الصلات بين الاب والابنة من جهة، وبين الام والابن من الجهة الثانية .

لقد بدأت اعراض اضطرابات عصبية تظهر عند مريضتنا ، التي سأسميها من الآن فصاعداً باسم دورا ، بدءاً من عامها الثامن . فقد كانت تشكو في ذلك الزمن من ضيق دائم في التنفس ، وكان أمره يستفحل في اثناء النوبات ؛ وقد ظهر هذا الضيق لأول مرة عقب نزهة قصيرة في الجبل ، وعُزي بالتالي الى الارهاق . وقد انحسرت هذه الحالة ببطء في غضون ستة أشهر ، بفضل ما أحيطت به من عناية وما فرض عليها من راحة . ويبدو ان طبيباً للأسرة لم يتردد لحظة واحدة في تشخيص اضطراب عصبي صرف ، وفي استبعاد اي سبب عضوي للزُلّة[8] ، ولكنه رأى على ما هو ظاهر للعيان ان هذا التشخيص يتمشى والافتراض بأن المرض ناشىء عن الارهاق[9] .

كانت الفتاة الصغيرة قد أصيبت بأمراض الطفولة السارية المألوفة ،

= سنوات بلا فائدة . وكل من يؤيد تصورات إرب - فورنييه ERB — FOURNIER يستطيع ان يرى في الخراع أو الشلل العام علامة على إصابة سابقة بالزهري ، وقد تحققت مباشرة بنفسي في عدد من الحالات من وجود هذه الاصابة لدى الآباء . وفي احدث مناقشة دارت حول نسل الزهريين (المؤتمر الدولي الثالث عشر للأطباء في باريس ، بين الثاني والتاسع من آب ١٩٠٠ ، تقارير فنجر وتارنوفسكي وجوليان وآخرين) لم اجد ذكراً لواقعة ارغمتني تجربتي كطبيب في أمراض الجهاز العصبي على التنبه الى وجودها ، وهي ان الزهري عند الآباء عامل له دوره الاكيد في اتيولوجيا الجبلّة العصبية المرضية عند الاولاد .

٨ - الزُلّة DYSPNEE : عسر التنفس . « م » .

٩ - سنتكلم لاحقاً عن العلة المحتملة التي سببت هذا المرض .

دون أن تخلف فيها ضرراً دائماً . وبحسب ما روته (وقد فعلت ذلك بقصد الرمز) ، فإن أخاها كان هو السباق الى الاصابة بالامراض ، وان لم تتعدّ عنده شكلاً خفيفاً هيناً ، على حين انها كانت تتبعه الى المرض بأعراض خطيرة . وقد عانت ابتداء من السنة الثانية عشرة من الشقيقة[10] ومن نوبات سعال عصبي ، وفي بادىء الأمر كان العرضان متلازمين ، ثم افترقا ليسلك كل منهما مساراً مختلفاً . ومالت الشقيقة الى الندور ثم اختفت لما بلغت السادسة عشرة . أما نوبات السعال العصبي ، التي كانت تنشأ في اغلب الظن عن نزلات زكامية عادية ، فقد ظلت مستمرة دواماً . وحينما قدمت الي في السنة الثامنة عشرة طلباً للعلاج ، كانت تعاني من نوبة سعال ، وكانت تسعل بطريقة متميزة . وما امكن تحديد عدد نوبات السعال ، ولكن الواحدة منها كانت تمتد من ثلاثة اسابيع الى خمسة اسابيع ، بل دامت إحداها بضعة أشهر . وكان العرض الأشد إزعاجاً ، في السنوات الاخيرة على الاقل ، انحباساً تاماً للصوت في النصف الأول من فترة النوبة . وكان قد قر الرأي منذ عهد بعيد على تشخيص حالة عصبية هذه المرة ايضاً ؛ ولكن مختلف طرق المعالجة المعهودة ، بما فيها المعالجة بالمياه والمعالجة الموضعية بالكهرباء ، لم تثمر نتيجة . واعتادت الفتاة ، وقد نضجت في مثل هذه الظروف وصارت صبية مستقلة الى ابعد الحدود في حكمها ، اعتادت على السخر من جهود الاطباء ، وعزفت في نهاية المطاف عن كل عناية طبية . وكانت ترفض دوماً بالأصل استشارة الطبيب ، وان لم يكن لديها أي سبب للنفور من شخص طبيب الأسرة . وكان كل اقتراح باستشارة طبيب جديد يستثير مقاومتها ، ولم تأتِ إلي إلا صدوعاً بأمر ابيها الجازم .

رأيتها للمرة الاولى في عامها السادس عشر ، في مطلع الصيف ، وكانت

١٠ - الشقيقة MIGRAINE : صداع نصف الرأس . « م » .

تعاني من سعال ومن بحة في الصوت . وقد اقترحت منذ ذلك الحين معالجة نفسية ، ولكن اقتراحي لم يؤخذ به نظراً الى أن تلك النوبة التي طال أمرها زالت من تلقاء نفسها . وفي شتاء العام التالي ، وعلى أثر وفاة عمتها الأثيرة ، قدمت الى فيينا لتقيم مع عمها وبناته ، ولكنها ما لبثت ان سقطت طريحة الفراش ، وعرتها الحمى ، وعزيت حالتها الى التهاب الزائدة الدودية[11] . وفي الخريف التالي ، رحلت الأسرة بصفة نهائية عن بلدة ب ، بعد ان سجلت صحة الأب تحسناً ملموساً ، وأقامت اول الأمر في البلدة التي فيها مصنع الأب ، ثم انتقلت نهائياً بعد قرابة عام واحد الى فيينا .

كانت دورا ، وقد بلغت ريعان الشباب وأصابت حظاً موفوراً من الذكاء واللطف ، مصدر هم وغم بالغين لوالديها . وكانت الاعراض الرئيسية لحالتها الاكتئاب والاضطرابات الطبعية . وكان واضحاً للعيان أنها غير راضية لا عن نفسها ولا عن ذويها ، وكانت تسلك سلوكاً مجافياً حيال والدها ، ولا تتفاهم على الاطلاق مع والدتها التي كانت تصر على حثها على المشاركة في الاشغال المنزلية . وكانت تسعى الى تحاشي كل شكل من أشكال العلاقات الاجتماعية ، وتشغل نفسها ، بقدر ما يتيح لها ذلك ما هي عليه من تعب والعجز عن التركيز ، بحضور المحاضرات في الاندية الاجتماعية وبمتابعة دروس جادة . وقد استبد بأهلها الهلع يوم عثرا في مكتب الفتاة أو فوقه على رسالة تودعهما فيها ، قائلة إنها ما عادت تطيق الحياة[12] . وحدس الأب ، بما أوتي من ذكاء ، بأن الفتاة لم تعقد عزماً

١١ ـ انظر بصدد هذه النقطة تحليل الحلم الثاني .

١٢ ـ ان علاجي للحالة ، وبالتالي معرفتي بترابط تاريخها المرضي ، بقيا ، كما اسلفت الذكر ، جزئيين ولا استطيع ، لهذا السبب بالذات ، ان اقدم تفسيراً لبعض النقاط ، او لا استطيع بصدد نقاط أخرى ان اقدم اكثر من تلميحات أو افتراضات . وحينما ورد ذكر الرسالة المشار اليها في احدى جلساتنا ، تساءلت الفتاة مندهشة : « الا كيف عثرا على تلك=

جاداً على الانتحار ، ولكنه ظل مشدوهاً للأمر ؛ ولما أصابتها ، على اثر مناقشة غير ذات شأن دارت بينها وبين أبيها ، نوبة إغماء لأول مرة في حياتها ـ وهي واقعة لم تحتفظ منها إلا بالنساية ـ قرّ عزمه ، رغم ما أبدته من معارضة ، على إرسالتها إليّ للعلاج .

ان تاريخ الحالة ، على نحو ما أوجزته حتى الآن ، لا يبدو ، في حاصل الكلام ، مما يستأهل النشر . « هستيريا صغرى » بأعراضها البدنية والنفسية الاكثر شيوعاً : الزُلة ، السعال العصبي ، انحباس الصوت ، وربما ايضاً الشقيقة ؛ وعلاوة على ذلك ، الاكتئاب ، والمزاج الهستيري اللااجتماعي، والقرف ـ غير الصادق كل الصدق في أرجح الظن ـ من الحياة . ومن المحقق انه نُشرت من قبل تقارير عن حالات هستيرية اكثر إثارة للاهتمام ، وبصياغة افضل في الغالب من الاحوال ، إذ لن تتضمن الصفحات التالية أيضاً شيئاً مـن عقابيل الحساسية الجلدية أو انكماش الحقل البصري ، الخ . على أني أبيح لنفسي فقط ان ألفت النظر الى أن جميع ما تجري مراكمته من الظاهرات الغريبة والعجيبة التي تحدث في الهستيريا لم يتقدم بنا تقدماً يذكر في تفهم هذا المرض الذي ما يزال الى اليوم على ألغازه . فما نحتاج اليه هو بالتحديد تسليط الضوء على أبسط الحالات واكثرها تواتراً ، وعلى اعراضها النمطية . ولن اكون إلا مغتبطاً فيما لو اتاحت لي الظروف أن أوضح حالة الهستيريا الصغرى هذه ايضاحاً كاملاً .

بعيد نشر كتابي **دراسات في الهستيريا** الذي ألفته مع د . ج . بروير

= الرسالة ؟ لقد كنت أغلقت عليها في مكتبي » . ولكن بما انها كانت تعلم ان والديها قرآ مسودة رسالة الوداع تلك ، فقد استنتجت من ذلك انها تعمدت هي نفسها ان تقع بين أيديهما .

١٣ ـ أعتقد أنه لوحظت ايضاً في اثناء هذه النوبة تشنجات وحالة هذيانية . ولكن بما أن التحليل لم يصل الى هذه الواقعة ، فلست متأكداً من شيء بهذا الخصوص .

والذي صدر عام ١٨٩٥ ، سألت زميلاً مبرزاً رايه في النظرية السيكولوجية للهستيريا كما عرضتها في هذا الكتاب ، فأجابني بصريح القول انه يرى فيها تعميماً لا يستند الى أساس لنتائج قد لا تصدق الا على بضع حالات . وقد عاينت منذئذ عدداً موفوراً من حالات الهستيريا ، واستغرقني العمل في كل حالة بضعة ايام او بضعة اسابيع او بضعة أشهر او بضع سنوات ، ولم تكن اية حالة تخلو من المحدِّدات النفسية المبينة في دراسات في الهستيريا ، وأعني بها الرضة النفسية ، والنزاع بين حالات وجدانية ، وكما أضفت في مؤلفات لاحقة ، تأذِّي الدائرة الجنسية . وبديهي أنه ليس لنا ان نتوقع ، متى ما كان الأمر يتعلق بمادة ما غدت باتولوجية الا من جراء نزوعها الى ان تبقى خبيئة ، أن يأتي المرضى من تلقاء انفسهم الى الطبيب ليكاشفوه بها ؛ كما أنه لا يجوز لنا أن نذعن لأول « لا » تعترض سبيل الباحث[١٤] .

كما ذكرت من قبل ، فإن الفضل يعود الى ذكاء أبيها في أنني لم اجد

١٤ ـ هاكم مثالاً على ذلك . كان زميل من زملائي الفييناويين على اقتناع بأن العوامل الجنسية عديمة الاهمية في الهستيريا ، وأرجح الظن ان اقتناعه هذا دعمته خبرات مماثلة لتلك التي ستلي ؛ وقد عقد العزم على ان يلقي على فتاة في الرابعة عشرة من العمر ، كانت تشكو من تقيؤات هستيرية حادة ، هذا السؤال غير المستحب : « هل عرفت يوماً ما علاقة عاطفية ؟ » . فأجابته الفتاة ان لا ، متصنعة في ارجح الظن الدهشة ، ثم روت لامها بعبارات لا تخلو من قحة : « تصوري ان ذلك الغبي سألني عما اذا كنت عاشقة » . وقد حضرت إلي فيما بعد للعلاج ، واتضح ، ليس من الجلسة الاولى بطبيعة الحال ، انها تعاطت على مدى سنوات عديدة الاستمناء المصحوب بافرازات بيض غزيرة (وثيقة الصلة عندها بالتقيؤ) ؛ ثم اقلعت من تلقاء نفسها عن عادة الاستمناء ، ولكن ظلت تعذبها ، بعد استنكافها ، مشاعر إثم بالغة العنف ، حتى لكان يتراءى لها ان جميع المصائب التي نزلت بأسرتها هي قصاص من الله على خطيئتها . هذا الى انها كانت تأثرت بقصة خالة لها اخفى عنها اهلها بنجاح فيما يظنون أمر حبلها اللامشروع (المحدِّد الثاني لقيئها) . وكانوا يتوهمون أنها « مجرد طفلة » ، ولكن تبيَّن انها خبرت كل ما هو اساسي في العلاقات الجنسية .

من حاجة الى البحث لدى مريضتي دورا عن نقطة البدء ، وعلى الاقل فيما يتصل بالشكل الاحدث عهداً الذي تلبسه مرضها . فقد اعلمني والدها أن أواصر صداقة حميمة ربطته هو وأسرته في بلدة ب بزوجين كانا يقيمان هناك منذ سنوات عديدة . وكانت السيدة ك قد تولت أمر العناية به في ابان مرضه الطويل الأمد ، فصار لها حق دائم ، على حد قوله ، في عرفانه . ويظهر ان السيد ك كان يحيط بنته دورا بالود ، وكان يخرج معها للنزهة حين يكون في البلدة ويقدم لها هدايا صغيرة . ولم ير أحد في ذلك ضراً . وكانت دورا ، على ما قيل ، تولي طفلي الزوجين ك عنايتها الفائقة ، فلكأنها نابت لهما مناب الام . وحين قدم الأب وابنته لرؤيتي قبل عامين ، في فصل الصيف ، كانا في طريقهما الى الانضمام الى السيد والسيدة ك اللذين كانا يصطافان على ضفاف احدى بحيراتنا الجبلية . وكان المفروض بدورا ان تقيم عدة اسابيع في منزل آل ك ؛ فيما كان الاب ينوي الرحيل في خلال ايام قليلة . وكان السيد ك موجوداً هو الآخر هناك . ولكن حينما تهيأ الأب للرحيل ، اعلنت الفتاة فجأة ، وبمنتهى الجزم ، انها سترحل هي الاخرى ، فكان لها ما ارادت . ولم تلق ضوءاً على مسلكها الغريب هذا إلا بعد بضعة أيام ، حينما روت لأمها ، كيما تنقل هذه بدورها كلامها الى أبيها ، ان السيد ك اجترأ ، في اثناء نزهة لهما عند البحيرة ، على مطارحتها الغرام . ولما طلب الأب والعم ، في اللقاء التالي ، من السيد ك ايضاحاً ، انكر المتهم أشد الانكار ان تكون صدرت عنه اية بادرة من شأنها أن تؤول هذا التأويل ، والقى في خاتمة المطاف الشبهة على الفتاة نفسها قائلاً ان السيدة ك أخبرته أنها لا تهتم بشيء الا بالامور الجنسية ، بل أنها قرأت ، في منزلهما على شاطىء البحيرة ، كتاب **فيزيولوجيا الحب** لمانتيغازا MANTEGAZZA ، وكتباً اخرى من هذا القبيل . وعلى هذا ، فإن مطالعات كهذه قد أثارت الفتاة في أغلب الظن ، كما قال ، فـ « تخيلت » المشهد الذي روته برمته .

وقال الأب : « لا أشك في ان هذه الحادثة هي السبب في ما طرأ

على دورا من انقلاب في المزاج وسرعة انفعال وافكار انتحارية .وهي تلح علي كي أقطع صلاتي بالسيد ك ، وعلى الاخص بالسيدة ك التي كانت تجلها من قبل الى أقصى حدود الاجلال . لكني لا أستطيع ان افعل ذلك ، أولاً لأنني انا نفسي أعتبر قصة دورا عن عروض السيد ك غير الشريفة مجرد وهم تسلط عليها ، وثانياً لأنه تربطني بالسيدة ك عرى صداقة صادقة ، ولا أحب أن أسبب لها غماً أو عناء . فهذه المرأة المسكينة تعيسة أشد التعس مع زوجها ، وفكرتي عن هذا الرجل ليست أصلاً عالية . ثم أنها تعاني هي نفسها من عصبية مفرطة ، ولا سند لها غيري . وبالنظر الى حالتي الصحية ، فلا داعي لأن اؤكد لك ان علاقتنا لا تنطوي على شيء غير مشروع . فما نحن الا كائنان تعيسان نحاول ، قدر المستطاع ، أن نتعزى بتبادل الود والتعاطف . وانت تعلم ان امرأتي لا تعني لي شيئاً . بيد ان دورا ، التي ورثت عني عنادي ، لا يمكن لشيء ان يصرفها عن كراهيتها لآل ك . وقد اعترتها نوبتها الاخيرة على اثر محادثة معي كررت فيها من جديد طلبها مني . فعليك انت ، الآن ، أن تحاول ردها الى الصواب » .

غير ان الأب كان ، في أحاديث أخرى ، قد حاول أن يلقي التبعة في طباع ابنته التي لا تطاق على زوجته التي كان سلوكها الغريب يجعل الحياة المشتركة في البيت متعذرة . اذن لم يكن من العسير عليّ أن ألحظ شيئاً من التناقض في تصريحات الأب . ولكني كنت قررت من البداية الا أقطع برأي بصدد حقيقة الأمر الا بعد أن أستمع الى ما سيقوله الطرف الآخر أيضاً .

ان الحادثة التي وقعت مع ك ـ المغازلة وما كانت تعنيه من اهانة ـ شكلت بالنسبة الى دورا الرضة النفسية التي كنا ، أنا وبروير ، اكدنا من قبل انها الشرط المسبق اللازم لقيام حالة هستيرية .وكانت الحالة الجديدة تنطوي على جميع الاشكالات التي حدتني منذئذ على تخطي هذه النظرية(١٥) .بيد انها كانت تنطوي ، علاوة على ذلك ، على إشكال جديد

١٥ ـ لقد تجاوزت هذه النظرية لكن من دون ان أتخلى عنها ، أي أنني لا أعتبرها اليوم خاطئة ،=

من طبيعة خاصة . وبالفعل ، ان الرضة التي تتجلى لنا في حياة دورا لتقف عاجزة ، كما يحدث غالباً في تاريخ الامراض الهستيرية ، عن تعليل الطابع المميَّز للاعراض أو تحديده؛ وما كان فهمنا للعلاقات وللروابط ليزيد أو ينقص لو ان أعراضاً اخرى غير السعال العصبي وانحباس الصوت والاكتئاب والقرف من الحياة ظهرت عقب الرضة . وينبغي ان نضيف الآن أن جانباً من الاعراض ـ السعال وانحباس الصوت ـ كان قد ظهر لدى المريضة قبل الرضة بسنوات ، وأن الاعراض الاولى يعود عمرها حتى الى الطفولة ، إذ كان ظهورها في عامها الثامن . لزام علينا اذن ، اذا كنا لا نريد ان نتخلى عن النظرية الرضية ، ان نعود القهقرى الى عهد الطفولة لنبحث فيه عن تأثيرات أو خبرات يمكن ان يكون لها أثر مماثل للأثر الذي ينجم عن الرضة ؛ وانه لمما تجدر ملاحظته أنه حتى دراسة الحالات التي لم تتظاهر أعراضها الاولى في عهد الطفولة ساقتني هي الاخرى الى الرجوع الى الوراء في تاريخ حياة المرضى وصولاً الى الاعوام الأولى من الطفولة(١٦) .

بعد ما تم التغلب على صعوبات العلاج الاولى ، كاشفتني دورا بحادثة سابقة ، أقدر من الاخرى على ان تفعل فعل الرضة الجنسية . كانت آنئذ في الرابعة عشرة من العمر ، وقد اتفق السيد ك معها ومع زوجته على أن تحضرا الى مخزنه بعد ظهر ذلك اليوم لمشاهدة احتفال ديني . لكنه اقنع زوجته بالبقاء في البيت وصرف العاملين عنده . فلما دخلت الفتاة الى

= بل غير كاملة . فأنا ما عدت أشدد على الحالات النوامية المزعومة ، التي كان يقال إنها لا بد ان تظهر لدى المرضى عقب الرضة والتي كان يعتقد أنها هي المسؤولة عن السيرورات النفسية اللاسوية التي تعقبها . ولئن جاز في عمل مشترك تحديد الانصبة في وقت لاحق ، فإنه بودي ان اؤكد هنا أن مسألة « الحالات النوامية » ، التي رأى فيها بعض النقاد نواة كتابنا ، كانت برمتها من اقتراح بروير . أما من جانبي فإني أرى ان هذا الاصطلاح لا جدوى منه ، بل قد يكون مضللاً لانه يقطع استمرارية المشكلة التي تستوجب بيان طبيعة السيرورات النفسية لتشكيل الاعراض الهستيرية .

١٦ ـ انظر مقالي : **حول اثيولوجيا الهستيريا** ، في **المجلة الطبية الفييناوية** ، ١٨٩١ ، الاعداد ٢٢ ـ ٢٦ ، المعاد نشره في **مجموعة من المقالات عن الاعصبة** ، ١٩٠٦.

المخزن ، وجدته بمفرده . ولما اقتربت ساعة مرور الموكب ، طلب الى الفتاة أن تنتظره عند الباب المفضي من المخزن الى سلم الطابق العلوي ، ريثما يغلق هو المصاريع . ثم عاد اليها ، ولكنه بدلاً من أن يخرج من الباب المفتوح شد الفتاة اليه وقبلها في فمها . وكان هذا من شأنه ان يستثير لدى فتاة في الرابعة عشرة من العمر ، ما قربها قط رجل بعد ، إحساساً واضحاً بالتهيج الجنسي . غير ان دورا اعتراها ساعتئذ شعور جارف بالاشمئزاز ، فانتزعت نفسها منه بعنف وهرعت ، وقد تملصت منه ، نحو السلم ، ومنه نحو باب المخزن . على انها ظلت تلتقي السيد ك، وامتنع كلاهما عن الاشارة الى ذلك الحادث ، ومن ثم احتفظت به ، على حد قولها ، في سرها الى ان باحت به في اثناء العلاج . وقد صارت على اية حال تتحاشى فيما بعد البقاء منفردة مع السيد ك . وكان الزوجان ك قد رتبا مشروعاً لرحلة تدوم بضعة ايام ، وكان المتفق عليه أن تشارك فيها دورا ايضاً . بيد أنها أبت ، بعد قبلة المخزن ، ان تصحبهما ، دون ان تفصح عن أسباب ذلك .

في هذا الحادث الثاني ، وان المتقدم على سابقه في الزمن ، كان سلوك الفتاة ذات الاربعة عشر عاماً سلوكاً هستيرياً تماماً . وإني أعتبر بلا تردد هستيرياً كل شخص لا تستثير لديه سانحة الإثارة الجنسية سوى الاشمئزاز ، حصراً أو على وجه الخصوص ، سيان ظهرت لديه أو لم تظهر اعراض بدنية . واستجلاء كنه أوالية **انقلاب الوجدان** هذا يبقى واحدة من أهم مشكلات علم نفس الاعصبة ومن أعسرها في آن معاً . وفي تقديري أني ما زلت بعيداً عن بلوغ هذا الهدف ؛ وفضلاً عن ذلك ، لن يسعني ، ضمن الاطار المحدود لهذا التقرير ، أن أعرض إلا جانباً من معارفي التي هي في الأصل بعيدة كل البعد عن الكمال .

ان حالة مريضتنا دورا لا تكون استوفت حقها من التوصيف والتمييز ان نحن اكتفينا بإبراز واقعة انقلاب الوجدان(١٧) . بل لا بد أن نضيف

---

١٧ ـ الوجدان AFFECT عند مدرسة التحليل النفسي هو التعبير الكيفي عن كم الطاقة الغريزية

القول انه حدث ايضاً **نقل** في الاحساس . فبدلاً من الاحساس التناسلي ، الذي ما كان ليغيب في شروط كهذه(١٨) عند فتاة سوية ، وجد لديها ذلك الاحساس المنغص المرتبط بالجزء المخاطي العلوي من القناة الهضمية : الاشمئزاز . ومن المؤكد إن إثارة الشفتين بالقبلة قد أثرت على هذا الموضع ، لكني أعتقد أني مستطيع أيضاً ان أتعرف هنا مفعول حافز آخر(١٩) .

ان الاشمئزاز الذي ساور دورا ساعتئذ لم يتحول عندها إلى عرض دائم ، ومن ثم لم يكن له من وجود لديها وقت العلاج الا بالقوة ، ان جاز لي القول . كانت تأكل بصعوبة ، وقد أقرت بأن لديها شيئاً من النفور من الاطعمة . وبالمقابل ، خلف لديها ذلك الحادث أثراً آخر ، في صورة هلوسة حواسية كانت تعاود ظهورها بين الفينة والفينة اثناء سردها قصتها . فقد ذكرت انها لا تزال تحس الى الآن ، في الجزء العلوي من جسمها ، بضغط ذلك العناق . وبمقتضى بعض قوانين تكوين الاعراض التي تأتّى لي ان اكشفها ، وعن طريق المقابلة مع سمات غريبة اخرى للمريضة كان سيستحيل بغير ذلك فهمها ـ من قبيل ذلك مثلاً أنها لا ترغب في المرور بجانب رجل منهمك في الحديث بلهفة أو مودة وعاطفية مع سيدة ما ـ تسنى لي على هذا النحو ان أعيد في ذهني بناء الحادث المشار اليه . فأنا اعتقد انها ما أحست ، في اثناء ذلك العناق المشبوب ، بالقبلة على شفتيها فحسب ، بل كذلك بضغط القضيب المنتصب على جسمها . وهذا الاحساس الجارح لمشاعرها جرى حذفه من ذاكرتها ، وكُبت، وأحِلّ محله

ومتحولاتها ، وسواء اقترنت الحالة الوجدانية بمشاعر لذة أو تنغيص . « م » .

١٨ ـ ان تقييم هذه الشروط سيكون اسهل متى ما سلطنا عليها لاحقاً مزيداً من الضوء .

١٩ ـ من المحقق ان اشمئزاز دورا ما كان يرجع الى اسباب عارضة ، والا لكانت تذكرتها وذكرتها . فقد تعرفت الى السيد ك عرضاً حين صحب والد المريضة في زيارته لي ؛ فهو رجل في ريعان شبابه ، ذو مظهر جذاب .

إحساس بريء بضغط على صدرها ، وهو إحساس يدين بشدته المسرفة لكبت الدافع الغريزي . ومن هنا كان نقل جديد من الجزء السفلي الى الجزء العلوي من الجسم[٢٠] . وبالمقابل ، فإن سلوك دورا القهري جاء وكأنه صادر عن تذكر لا تحريف فيه للحادث . فهي ما كانت ترغب في المرور بجانب رجل تعتقد أنه في حالة تهيج جنسي ، لأنها لا تريد ان ترى مرة ثانية العلامة البدنية لهذا التهيج .

انه لمما يسترعي الانتباه ان ثلاثة اعراض ـ الاشمئزاز ، والاحساس بالضغط على الجزء العلوي من الجسم ، والنفور من خلوة الرجال العاطفية مع المرأة ـ تنجم هنا عن حادثة واحدة ،وان المقاربة بين هذه المؤشرات الثلاثة هي وحدها التي تتيح لنا ان نفهم سيرورة تكوين الاعراض . فالاشمئزاز عرض مناظر للمنطقة الشهوية الشفوية (« المدللة » ، كما سنرى ، بنتيجة المص الطفلي) . وأرجح الظن ان ضغط العضو المنتصب كان من نتيجته تغير مماثل في العضو الانثي المناظر ، البظر. وقد رُبط تهيج هذه المنطقة الثانية ، بواسطة النقل ، بالاحساس المزامن له بالضغط على الصدر ، وهناك تثبَّت. أما تجنب الرجال الذين يحتمل ان يكونوا في حالة تهيج جنسي فمحكوم بأوالية رهاب ، وذلك تفادياً لتكرار جديد للادراك الحسي المكبوت .

تأكداً من صحة الأساس الذي بنيت عليه هذه الاستنتاجات ، سألت المريضة ، بمنتهى التحرز ، عما اذا كانت لديها فكرة ما عن العلائم البدنية للتهيج عند الرجل . فأجابتني أنْ نعم في الوقت الحاضر ، ولكنها أضافت

٢٠ ـ إن مثل هذه الضروب من النقل ليست فرضاً فرضناه بغية تفسير هذه الحالة وحدها ،وانما هي نابعة من عدد كبير من الاعراض التي لا سبيل بدونها الى تفسيرها . وبعد ان كتبت هذا النص ، قصدتني فتاة كانت مخطوبة الى شاب كانت مغرمة به من قبل ، ثم اعترتها تجاهه برودة ووقعت فريسة اكتئاب شديد . وقد أبدت عن وجدان حصر مماثل تسبب فيه عناق (بلا قبلة) . وقد افلحت في هذه الحالة ، بغير ما صعوبة ، في إرجاع خوف الفتاة الى انتصاب الرجل الذي احست به ، وان محته من شعورها .

تقول انها تعتقد أنها كانت لا تعرف شيئاً من هذا عهدئذ . وكنت قد أخذت مع هذه المريضة من البداية كل الحيطة اللازمة حتى لا أمدها بأية معلومات جديدة في مضمار الحياة الجنسية ، وذلك ليس بوازع من تزمت الضمير ، وإنما لكي أخضع فروضي في هذه الحالة لضبط صارم . وما كنت اسمي الاشياء بأسمائها إلا حين تكون تلميحاتها إليها واضحة الى حد لا تعود معه ترجمتها المباشرة تنطوي على مجازفة ما.وكانت، متى ما أجابت اجابة سريعة وصريحة، تدل على انها على سبق معرفة بالشيء ، ولكن من أين جاءتها هذه المعرفة ؟ هذا لغز ما استطاعت ان تفكه ، لأن ذكرياتها لم تأذن لها بذلك[٢١] .

ان كان لي ان أتصور ان المشهد في المخزن قد جرى على النحو الذي ذكرت ، فبوسعي أن أصل الى التفسير التالي لأصل الشعور بالاشمئزاز[٢٢] . فالاحساس بالاشمئزاز يبدو أنه في الاصل استجابة لرائحة البراز (ولمظهره ايضاً في وقت لاحق) . والحال ان أعضاء الرجل التناسلية ، وعلى الاخص القضيب ، يمكن ان تذكّر بالوظائف الإخراجية ، لأنها تضطلع ، فضلاً عن الوظيفة الجنسية، بوظيفة التبول أيضاً . بل ان الوظيفة الأخيرة هذه هي أقدم الوظيفتين والوحيدة المعروفة منهما في المرحلة قبل الجنسية . وعلى هذا المنوال يغدو الاشمئزاز تعبيراً وجدانياً عن الحياة الجنسية . والقول المأثور لأحد آباء الكنيسة INTER URINAS ET FAECES NASCIMUR[٢٣] مرتبط بالحياة الجنسية ولا يقبل انفصالاً عنها ، بالرغم من كل الجهود لخلع هالة من المثالية عليها . بيد أني احرص على الاعلان أن المشكلة في نظري لا تنحل بمجرد الاهتداء الى طريق

٢١ ـ انظر الحلم الثاني .

٢٢ ـ هنا ، كما الشأن في جميع الحالات المشابهة ، ينبغي ان نتوقع لا تعليلات بسيطة ، بل متعددة ، أي تضاعف التعيين SURDETERMINATION .

٢٣ ـ باللاتينية في النص : بين البول والبراز نولد . «م» .

التداعي هذا . فإن يكن هذا التداعي قابلاً للابتعاث ، فهذا لا يعني أنه من المحتم ان يُبتعث فعلاً . والواقع أنه لن يجد في الظروف السوية سبيلاً الى الابتعاث . ومعرفة سبل التداعي لا تغني عن الحاجة الى معرفة القوى التي تسلك هذه السبل[٢٤] .

ولم يكن يسيراً علي على كل حال أن أوجه انتباه مريضتي الى علاقاتها بالسيد ك . فقد كانت تدعي أنها انتهت من هذا الشخص . فالطبقة العليا من تداعياتها ، وكل ما كان يصير عندها بيسر شعورياً ، وما تتذكره من اليوم السابق باعتباره شعورياً ، كل ذلك كان يرتبط عندها دوماً بأبيها . وكان صحيحاً تماماً أنها ما استطاعت ان تغفر لأبيها استمرار علاقاته بالسيد ك . وعلى الاخص بالسيدة ك . وكانت تؤول هذه العلاقات على اية حال تأويلاً مغايراً تماماً لما كان الأب يتمنى . ففي نظرها لم يكن ثمة من شك في أن الصلات التي تربط أباها بتلك المرأة الشابة والحسناء هي من النوع الغرامي العادي . وما كان شيء مما يمكن ان يسهم في تعضيد اقتناعها هذا ليفلت من ملاحظتها التي كانت في هذا الصدد حادة ثاقبة : **فهنا لم يكن ثمة فجوة في ذاكرتها** . كان التعارف مع الزوجين ك قد تم قبل مرض الأب الخطير ، لكن العلاقـات لم تغد حميمة إلا حين فرضت المرأة الشابة نفسها أثناء مرضه كممرضة له ، بينـما لبثت الأم بعيدة عن سرير المريض . وفي أول اصطياف بعد شفائه حدثت أشياء كان من شأنها أن تفتح عين كل انسان على الطبيعة الحقيقية لهذه «الصداقة » . فقد استأجرت الأسرتان جناحاً مشتركاً في احد الفنادق . ثم ما لبثت السيدة ك

٢٤ ـ تنطوي هذه المناقشات على أشياء نمطية كثيرة وذات قيمة عامة بالنسبة الى الهستيريا . فموضوعة الانتصاب تقدم حلاً لبعض من أطرف الاعراض الهستيرية . والانتباه الذي توليه المرأة لمعالم أعضاء الرجل التناسلية ، كما ترتسم من خلال الملابس ، يغدو ، بعد كبته ، دافعاً الى العديد من حالات الخجل المسرف والخوف من حياة المجتمع . والحق أن روابط كثيرة تقوم بين الجنسي والإخراجي ، ومهما غالينا في تقدير اهميـة دورها في توليد المرض فلسنا نوفيها حقها ، وعنها ينشأ اصلا عدد كبير للغاية من الارهبة PHUOBIES .

ان أعلنت ذات يوم انها ما عادت تستطيع البقاء في غرفة النوم التي كان يشاطرها اياها حتى ذلك الوقت أحد ولديها ، وبعد بضعة ايام تخلى والد دورا عن غرفته ، وانتقل الاثنان الى غرفتين جديدتين ، تقعان في اقصى الداخل ولا يفصل بينهما سوى الممر ، بينما لم تكن الحجرتان اللتان تخليا عنهما تتوفر لهما الضمانة نفسها من إزعاج محتمل . وحين أنحت دورا فيما بعد باللائمة على أبيها بخصوص السيدة ك ، أجاب بأنه لا يفهم هذه العداوة ، وأن الاولى بها هي وأخيها ان يعترفا بالجميل للسيدة ك . ولما سألت أمها بعد ذلك ايضاحاً للمقصود من هذا الكلام الغامض روت لها ان اباها كان في غاية من التعاسة في ذلك الوقت حتى انه اراد الانتحار في الغابة . لكن السيدة ك ، التي حدثها قلبها بالأمر ، لحقت به ، على ما يبدو ، واقنعته بتوسلاتها أن يبقي على حياته من أجل ذويه . وطبيعي ان دورا لم تصدق هذه القصة . بل ذهبت على العكس الى الافتراض بأن العشيقين لما ضبطا في الغابة ، سارع الأب الى اختلاق قصة الانتحار ليبرر لقاءهما ذاك[٢٥] .

بعد عودتهم إلى ب صار الأب يذهب كل يوم في ساعة محددة الى زيارة السيدة ك في بيتها ، فيما يكون السيد ك في مكتبه . ويبدو ان الناس كلهم كانوا يتحدثون في الموضوع ، بل ان دورا نفسها وجدت يوماً من يسألها ، كما قالت ، بخصوص الموضوع بطريقة لها مغزاها . وحتى السيد ك اشتكى مراراً لوالدة دورا ، على حد قـول هذه الاخيرة ، وان حرص على تجنيبها هي نفسها ـ دورا ـ أي تلميح الى هذا الموضوع ، وهذه رهافة في المشاعر تحمد له . وفي اثناء النزهات المشتركة كان الاب والسيدة ك يعرفان دائماً كيف يرتبان الأمر بحيث ينفردان معاً . ولا شك في ان السيدة ك كانت تتلقى منه نقوداً ، لأن إنفاقها كان اكثر بكثير من ان تغطيه

٢٥ ـ لهذا صلة بتمثيليتها الانتحارية الخاصة التي يمكن ان نرى فيها تعبيراً عن رغبة في حب مماثل .

مواردها أو موارد زوجها . وأضافت دورا تقول إن أباها بدأ يقدم الهدايا النفيسة للسيدة ك ، وحتى يخفي أمرها طفق يسرف في الكرم حيال زوجته وحيال دورا نفسها . ولئن كانت المرأة الصبية (السيدة ك) تعاني فيما مضى من المرض حتى أنها اضطرت في أحد الايام الى تمضية بضعة شهور في أحدى مصحات الامراض العصبية ، فقد غدت الآن موفورة الصحة وطافحة بالحيوية .

بعد الرحيل عن ب ، تواصلت هذه العلاقات ـ وكـان قد صار لها من العمر سنوات ـ وكان الأب يعلن بين الفينة والفينة أنه ما عاد يطيق ذلك الجو القاسي ، وأنه لا مندوحة له عن ان يفكر بنفسه ويهتم لذاته ، ويطفق يسعل ويشكو ، ثم على حين غرة يرحل الى ب ، ومن هناك كان يكتب اليهم رسائل تفيض بالمرح . ولم تكن هذه الامراض كلها إلا ذريعة للقاء صديقته من جديد . وذات يوم تقرر أن تنتقل الأسرة الى فيينا ، وطفقت دورا تشتبه في وجود سبب خفي وراء هذا القرار . وبالفعل ، ما كادت تمضي اسابيع ثلاثة على وصولهم الى فيينا حتى علمت دورا ان الزوجين ك انتقلا بدورهما اليها . وهما موجودان فيها الآن ، أي في الوقت الذي تحدثني فيه دورا ، بل كثيراً ما كانت تلتقي أباها في الشارع بصحبة السيدة ك . وكانت تلتقي كثيراً أيضاً السيد ك ؛ وكان يتابعها دوما بنظراته ، وقد لمحها يوماً بمفردها فسار وراءها شوطاً طويلاً من الطريق ليعرف الى أين تقصد ، وليطمئن الى انها ليست موافية أحدهم الى موعد .

لم يكن بابا صريحاً ؛ وينطوي بطبعه على شيء من الرياء ، ولا يفكر إلا بما يسره هو ، وكان موهوباً في تدبر الاشياء بحيث تكون في صالحه الى اقصى حد . كـانت دورا تعرب عن انتقاداتها هذه في حضوري ، فيما كان أبوها ، وقد ساءت صحته من جديد ، قد رحل الى ب لتمضية بضعة أسابيع فيها . وبديهي ان الفتاة ما لبثت ان ادركت بثاقب بصيرتها ان السيدة ك قد رحلت هي الاخرى الى ب لتزور هناك أهلها .

ما كان بوسعي ان أعترض بشيء على اللوحة التي رسمتها دورا لي عن

أبيها ولم يكن يسيراً عليّ أصلاً أن أدرك ما نصيب الصواب في ما تقوله . فحين كانت تتميز غيظاً ، كان يتراءى لها أنها أبيحت للسيد ك ثمناً لتغاضيه عن العلاقة بين زوجته وبين والد دورا ؛ وكنت أستشف ، وراء عطف دورا على أبيها ، حنقاً من معاملته لها هذه المعاملة . وفي احيان اخرى ، كانت تقر بأنها أخطأت بمغالاتها في التحدث بمثل ما كانت تتحدث به . فالرجلان لم يعقدا قط بطبيعة الحال صفقة حقيقية تجعل منها موضوع مقايضة ؛ ومن المحقق ان والدها بوجه خاص كان سيتراجع مرتاعاً ازاء افتراض كهذا ، ولكنه كان من اولئك الرجال الذين يتفننون في التخفيف من حدة نزاع ما بتزييفهم حكمهم على إحدى القضيتين المتناقضتين . فلو نُبِّه الى الخطر الذي لا مفر من ان يحيق بفتاة في مقتبل العمر من جراء صلتها الدائمة ، وغير الخاضعة لرقابة ، برجل لا يلقى لدى زوجته بغيته من الاشباع ، لكان الاب أجاب بكل تأكيد انه يثق بابنته ، وان رجلاً مثل ك لا يمكن بحال ان يكون خطراً عليها ، وأن صديقه ، هو ، ليترفع عن مقـاصد ومآرب كهذه؛ او كان سيقول : «دورا ما تزال طفلة ، والسيد ك يعاملها كطفلة ...» ولكن الحق أن كلاً من الرجلين كان يتحاشى أن يستخلص من سلوك الآخر نتائج تتعارض ورغائبه . ومن هنا امكن للسيد ك ، على مدى سنة كاملة ، وما دام موجوداً في البلدة ، ان يرسل يومياً الزهور الى دورا ، وأن ينتهز كل سانحة ليقدم لها هدايا نفيسة ، وأن يقضي كل اوقات فراغه بصحبتها ، دون أن ينتبه والداها الى شيء في هذا السلوك يمكن ان يُفسر على أنه تودد غرامي .

حين يواجه الطبيب ، في اثناء العلاج التحليلي النفسي ، سلسلة من الافكار السليمة المنطق، الدامغة الحجة ، قد يأخذه لهنيهة من الزمن الارتباك ، فيسارع المريض الى انتهاز الفرصة ليطرح عليه هذا السؤال : «كل ذلك صحيح وواقع ! وبعد أن رويت لك ما رويت ، فما عساك ان تغير فيه؟» . ولا يلبث الطبيب ان يفطن ان المريض ما لجأ الى هذه الافكار ، التي يتعذر تفنيـدها بالتحليل ، إلا ليحجب افكاراً اخرى تتوق الى الافلات من

قبضة النقد والوعي . ان سلسلة من المآخذ ضد أشخاص آخرين تحمل على افتـراض وجود سلسلة من المآخذ المماثلة في طبيعتها والموجهة ضد الذات (تبكيت الضمير) . وحسب الطبيب عندئذ أن يقلب كل مأخذ من هذه المآخذ ضد شخص الناطق بها . وهذه الطريقة التي يعتمدها المرضى في دفع التأنيب الذاتي عن أنفسهم بتوجيه التأنيب عينه الى أشخاص آخرين تنطوي بلا جدال على شيء من الآليـة . واننا لواجدون نموذجاً لها في ردود الاطفال الذين متى ما اتهموا بالكذب اجابوا بلا تردد : «كذاب ! انما انت الكذاب ! ». اما الراشد فإنه ، في مسعاه الى ردِّ الاهانة ، يبحث عن نقطة ضعف حقيقية في شخص خصمه ولا يحاول ان يرد الاهانة إليه كما هي بلا تعديل . وهذا الاسقاط للمآخذ على الآخرين ، بدون تغيير في مضمونها ، ومن ثم بدون تكيف مع الواقع ، يتجلى في البارانويا كتعبير عن سيرورة تكوين الهذاء .

لقد كانت مآخذ دورا على أبيها مشبعة ، «مبطَّنة» ، جميعها بلا استثناء ، بمآخذ على ذاتها من طبيعة مماثلة ، كما سنبين ذلك بالتفصيل . وكانت على حق في اعتقادها بأن أباها لا يريد ان يفطن الى سلوك السيد ك تجاه ابنته ، تفادياً لإرباكه في علاقاته بالسيدة ك . ولكنها فعلت بالتحديد الشيء عينه . فقد جعلت من نفسها شريكة متواطئة في هذه العلاقات ونحَّت من وعيها جميع القرائن التي من شأنها أن تكشف عن الطبيعة الحقيقية لهذه العلاقات . وانما على اثر المغامرة على ضفاف البحيرة بدأت تعي الموضوع وتواجه اباها بمتطلباتها الصارمة . أما طوال السنوات التي سبقت فقد عملت كل ما بوسعها لتيسير علاقات ابيها بالسيدة ك . وما كانت تذهب قط الى السيدة ك حين كانت تفترض ان اباها موجود عندها . وكانت تعلم ان الطفلين لا بد ، والحالة هذه ، ان يكونا خارج المنزل ، فكانت توجه خطاها بحيث تلتقيهما وتتنزه معهما . وكان في البيت شخص واحد رغب في وقت مبكر في فتح عيني دورا على حقيقة علاقات ابيها بالسيدة ك ، وفي حضها على اتخاذ موقف ضد هذه المرأة . تلك كانت مربيتها الاخيرة ،

وهي آنسة لم تعد في مقتبل العمر، مثقفة ومتحررة الفكر[٢٦] . وقد أقامت المعلمة والتلميذة على تفاهم جيد لفترة غير قليلة من الزمن ، ثم ما عتمت دورا ان تخاصمت معها على حين غرة وطلبت رفتها .

أما ما كان للمربية قدر من النفوذ ، فقد كانت تستغله في تأليب دورا وأمها على السيدة ك . وكانت توضح للأم أنه مما يتنافى وكرامتها ان تغضي عن مثل تلك الصلة الحميمة بين زوجها وامرأة غريبة ؛ كما كانت تلفت انتباه دورا الى ما هو غريب ومريب في هذه العلاقة . بيد ان جهودها ذهبت ادراج الرياح ؛ فقد لبثت دورا على تعلقها الودود بالسيدة ك ، ولم تشأ أن تعرف شيئاً مما يمكن ان يعكر نظرتها الى علاقة أبيها بهذه السيدة . وبالمقابل ، كانت دورا تدرك جيداً طبيعة الدوافع التي تحرك المربية . فبقدر ما كانت دورا عمياء في اتجاه ، كانت ثاقبة البصر في الاتجاه الآخر . فقد فطنت الى ان المربية مغرمة بأبيها . فحين يكون الأب حاضراً كانت المربية تبدو شخصاً مغايراً تماماً ؛ وكانت تعرف عندئذ كيف تأخذ سمت الشخص المرح والخدوم. ويوم كانت الأسرة تقطن المدينة الصناعية بعيداً عن السيدة ك ، كانت المربية تحاول أن تقلب مشاعر دورا على أمها التي كانت تصير عندئذ غريمتها ذات الشأن . بيد ان دورا لم تضمر لها الى هنا حقداً . ولم تثر حفيظتها إلا حينما تبينت أنها هي نفسها لا تعني للمربية شيئاً على الاطلاق ، وأن الحب الذي محضتها إياه هذه الاخيرة انما كان ينصب في الواقع على أبيها . فما دام الأب غائباً عن المدينة الصناعية ، كانت المربية لا تملك وقتاً حراً تمضيه مع دورا ، وتأبى الخروج معها الى

٢٦ ـ كانت هذه المربية تطالع جميع الكتب التي تتعلق بالحياة الجنسية ، وما شابه ، وكانت تحدث دورا عن هذه المسائل ، طالبة اليها بصراحة ألا تفاتح ذويها بما يدور بينهما من كلام ، لأنه لا سبيل الى معرفة ما يمكن ان يكون موقفهما من هذه الأمور. وقد خيل إليّ لحين من الزمن أن دورا تدين لهذه المرأة بكل معارفها ومعلوماتها السرية ، ولعلي لم اكن مخطئاً كل الخطأ بصدد هذه النقطة .

النزهة ، ولا تلقي بالاً الى دراستها . وما يكاد الأب يعود من بلدة ب ، حتى تعود المربية من جديد على اهبة الاستعداد لأداء كل خدمة وتقديم كل مساعدة . عندئذ تحولت دورا عنها نهائياً .

لقد بيَّنت المربية المسكينة لدورا ، بجلاء كريه الى النفس ، جانباً من حقيقة سلوكها الخاص . فقد سلكت دورا مع طفلي السيدة ك مسلك مربيتها معها بين الآن والآخر . فقد كانت دورا تقوم مقام الام الطفلين ، وتشرف على تعليمهما ، وتأخذهما للنزهة ، وتقدم لهما تعويضاً كاملاً عن ضآلة ما كانت أمهما تحيطهما به من اهتمام . وكثيراً ما دار كلام عن الطلاق بين الزوجين ك ، ولكنه ما تم قط لأن السيد ك كان أباً عطوفاً ولا يبغي ان يتخلى عن أي من ولديه . وكان الاهتمام المشترك بالطفلين وسيلة تقارب من البداية بين السيد ك ودورا . وبديهي ان اهتمام دورا بالطفلين كان ستاراً تخفي وراءه عن نفسها وعن الآخرين شيئاً آخر .

هكذا سلكت دورا حيال الطفلين عين سلوك مربيتها تجاهها. والاستنتاج الذي يفرض نفسه في هذه الحال ـ وهو عين الاستنتاج الذي يمكننا استخلاصه من موافقتها الضمنية على علاقة أبيها بالسيدة ك ـ هو أنها على مدى تلك السنوات كانت مغرمة بالسيد ك . وحين فاتحت دورا بهذا الاستنتاج ، لم توافقني في ما ذهبت اليه . صحيح أنها سارعت الى إخباري بأن أشخاصاً آخرين ، ومنهم مثلاً ابنة عـم لها كانت قد أمضت فترة من الزمن عندهم في بلدة ب ، قالوا لها : «والله انك لمجنونة بهذا الرجل !» ؛ ولكن ما كان يمكنها هي نفسها ان تتذكر أن مشاعر من هذا القبيل راودتها قط . وفيما بعد ، وحين بلغت المواد المبتعثة من الوفرة ما جعل المماراة عليها صعبة ، أقرت بأنه من المحتمل ان تكون أحبت السيد ك ، ولكن كل شيء انتهى منذ حادث البحيرة[٢٧] . ومهما يكن من أمر ، فإن

٢٧ ـ انظر الحلم الثاني .

المأخذ الذي اخذته على أبيها من أنه كان يصم أذنيه عن واجباته الأكثر إلزاماً وأنه رتب الأشياء على النحو الأكثر موافقة لمقاصده الغرامية ، انما كان يرتد على شخصها هي[٢٨] .

اما التهمة الأخرى ، التي كان مؤداها أن أباها يتخذ من مرضه تعلة يخدم بها مآربه ، فهي تموه بدورها جانباً بتمامه من تاريخ حياتها السري . فقد اشتكت يوماً من عرض جديد في ظاهره ، يتمثل بأوجاع معدية حادة ، ولما سألتها: « من كنت تحاكينه هنا؟ » وجدت أني أصبت الهدف . فقد كانت زارت ، مساء اليوم السابق ابنتي عمتها المتوفاة . كانت صغراهما قد خطبت ، فصارت تنتاب الكبرى ، بهذه المناسبة ، آلام في المعدة ، فتقرر ترحيلها الى سمرينغ[٢٩] وقد زعمت دوراً أن الامر كله لدى كبرى الاختين أمر غيرة ، إذ أن هذه الفتاة كانت تقع على الدوام مريضة كلما ارادت الظفر بشيء ، وهي تريد الآن مبارحة البيت حتي لا تشهد بأم عينها سعادة اختها[٣٠] . غير أن آلام دورا المعدية كانت تشهد على تماهيها مع ابنة عمتها ، التي كانت تصفها بالتصنع والتمارض ، إما لأنها كانت هي الأخرى تحسد الأخت الاسعد حظاً على حبها ، وإما لأنها رأت مصيرها الخاص ينعكس في مصير الأخت الكبرى التي كانت قد عاشت ، قبيل زمن وجيز ، قصة حب آلت الى نهاية تعيسة[٣١] . وكانت قد

٢٨ ـ هنا ينطرح سؤال : اذا كانت دورا أحبت السيد ك ، فكيف السبيل الى تفسير الرفض في حادث البحيرة ، أو على الاقل الشكل الشرس لهذا الرفض ، حتى لكأن نفسها ممتلئة غيظاً وحنقاً ؟ وكيف لفتاة عاشقة أن تستشعر الاهانة في مطارحة جرى التعبير عنها ـ كما سنرى لاحقاً ـ بأسلوب بعيد كل البعد عن الفظاظة أو الفحش ؟

٢٩ ـ سمرينغ : منتجع في جبال الألب النمساوية ، يقع على مسافة خمسين ميلاً جنوبي فيينا . « م »

٣٠ ـ ان ردود الفعل هذه شائعة بين الاخوات .

٣١ ـ سأتكلم فيما بعد عن استنتاج آخر استخلصته من آلامها المعدية .

تعلمت أيضاً ، من خلال مراقبتها السيدة ك ، كيف يمكن استغلال الامراض استغلالاً نافعاً . فقد كان السيد ك يمضي شطراً من السنة في الاسفار ، وكلما آب من السفر وجد زوجته موجوعة ، مريضة ، مع انها كانت بالأمس ـ ودورا تعلم ذلك حق العلم ـ موفورة الصحة والعافية . وقد فهمت دورا أن لحضور الزوج أثراً إمراضياً على زوجته ، وان هذه كانت ترحب بالمرض لأنه يتيح لها ان تتخلص من الواجبات الزوجية البغيضة . وان ملاحظة أقحمتها هنا على نحو مباغت ، وأشارت فيها الى ما كان يتناوبها من صحة ومرض في السنوات الأولى من شبابها التي أمضتها في ب ، جعلتني أنساق الى الافتراض بأن أحوالها الصحية ينبغي النظر اليها على انها منوطة بأسباب مماثلة لتلك التي تفعل فعلها لدى السيدة ك .

إن من قواعد التحليل النفسي قاعدة تنص على أن الصلة الداخلية التي لا تزال خبيئة تفصح عن نفسها من خلال التلاصق أو التجاور الزمني بين التداعيات ، تماماً كما لو في الكتابة حيث اذا وضعنا « أ » بجانب « ب » كان لا بد ان يتألف منهما المقطع « با » . فدورا كانت قد عانت من نوبات كثيرة جداً من السعال وانحباس الصوت ؛ فهل كان من الممكن ان يكون لحضور الكائن الحبيب أو لغيابه أثر في ظهور الأعراض المرضية أو اختفائها ؟ فإن كان الأمر كذلك ، فلا بد ان يكون في الامكان الكشف عن توافق ما يشي به . وقد سألت دورا عن متوسط مدة تلك النوبات . فأجابتني أنها تتراوح من ثلاثة الى ستة أسابيع . فلما سألتها كم كان يدوم غياب السيد ك ، لم تجد مناصاً من الإقرار بأنه كان يدوم من ثلاثة الى ستة اسابيع ايضاً . وهكذا كانت تظهر بمرضها حبها للسيد ك ، مثلما كانت زوجته تظهر له كرهها .

وكل ما هنالك أنه كان لا بد من الافتراض بأن سلوكها مناقض لسلوك السيدة ك ؛ فهي تمرض في غياب السيد ك ، وتسترد عافيتها لدى عودته . وهذا ما بدا انه يتفق مع واقع الحال ، على الأقل في الفترة الأولى من النوبات. أما فيما بعد، فقد توجب محو التوافق بين نوبات المرض وبين

غياب الرجل المعشوق سراً ، حتى لا يؤدي تواتر التوافق الى فضح السر . وبقيت مدة النوبة وحدها قرينة على دلالتها الأصلية .

كنت فيما مضى، في عيادة شاركو[٣٢]، قد رأيت وسمعت أن موهبة الكتابة تنوب مناب الكلام لدى الاشخاص المصابين بالخرس الهستيري . فهم يكتبون بأسهل وأسرع وأفضل من الآخرين ، بل خيراً مما كانوا يكتبون هم انفسهم قبلاً . وكذلك كان الأمر بالنسبة الى دورا . ففي الأيام الأولى من فقدانها صوتها صارت تكتب بمنتهى اليسر . ولم تكن هذه السمة ، باعتبارها تعبيراً عن وظيفة فيزيولوجية بديلة خلقتها الحاجة ، بحاجة الى اي تفسير سيكولوجي في الواقع ؛ غير انه مما تجدر ملاحظته أن مثل هذا التفسير كان سهلاً العثور عليه . فقد كان السيد ك يكتب اليها بكثرة حين يكون مسافراً ، ويرسل اليها بطاقات بريدية . وكانت هي وحدها في بعض الاحيان التي تعلم بتاريخ عودته ، على حين كانت زوجته تفاجأ دوماً بموعد وصوله . وأن يتراسل المرء كتابة مع الشخص الغائب الذي لا يستطيع مبادلته الكلام فأمر يعادل في معقوليته رغبة المرء في التعبير عن نفسه بالكتابة في حال فقدانه صوته . وهكذا كان فقدان دورا لصوتها يفسح في المجال امام التأويل الرمزي التالي : ففيما يكون الحبيب غائباً كانت تعزف عن الكلام الذي يفقد في هذه الحال قيمته كلها ما دام متعذراً عليها أن تكلمه ، « هو » . وبالمقابل، كانت الكتابة تكتسب قدراً اعظم من الأهمية باعتبارها الوسيلة الوحيدة للاتصال بالغائب .

هل ينبغي ان نستنتج من ذلك أنه يتحتم ، في جميع حالات الانحباس

٣٢ ـ جان مارتن شاركو : طبيب اعصاب فرنسي (١٨٢٥ ـ ١٨٩٣) ، استاذ التشريح الباتولوجي في مستشفى سالبيستريير ،وقد وصف معظم اعراض الامراض العصبية العضوية ، وأولى اهمية خاصة لـ « العصاب » ، وربط بين الهستيريا وبين الصدمة الانفعالية ، وكان من اوائل من استخدموا التنويم المغنطيسي والايحاء في معالجة المرضى . وقد درس عليه فرويد سنة ١٨٨٥ واقترح ان يترجم محاضراته ، فقبل اقتراحه .

«م»

الدوري للصوت ، تشخيصها بأنها ناجمة عن غياب مؤقت للشخص المحبوب ؟ ليس هذا بكل تأكيد قصدي . فتعيُّن العرض في حالة دورا اكثر خصوصية من أن يبيح لنا توقع تواتر مثل هذه الاتيولوجيا العارضة . فما قيمة تفسيرنا لانحباس الصوت في الحالة التي نحن بصددها ؟ ألم ندع انفسنا ننساق بالاحرى وراء لعبة من لعب الذكاء ؟ لا اعتقد ذلك . فلنتذكر هنا انه كثيراً ما طرح السؤال عما اذا كانت الهستيريا من أصل نفسي او بدني . فإن سلمنا بالأصل النفسي ، كان لنا أيضاً ان نتساءل عما اذا كانت جميع اعراض الهستيريا ذات تعيين نفسي بالضرورة . وهذا السؤال ، كأسئلة كثيرة غيره حاول الباحثون المثابرون بلا جدوى الاجابة عنها ، سؤال أسيء طرحه . فجوهر المشكلة لا يحتويه حدًّا هذا الاحراج . وبقدر ما تيسر لي العلم ، فإن كل عرض هستيري بحاجة الى مساهمة الطرفين . فهذا العرض لا يمكن ان يتظاهر بدون قدر من **المسايرة البدنية** التي تجد تعبيرها في سيرورة سوية أو مرضية في عضو من أعضاء البدن أو بالارتباط معه . ولا تحدث هذه السيرورة سوى مرة واحدة اذا لم يكن لها مدلول نفسي أو معنى ، على حين ان القدرة على التكرار هي سمة مميزة للعرض الهستيري . ولا يكون للعرض الهستيري في بادىء الأمر معنى كهذا ، بل إن هذا المعنى يعار له ، يلصق به لصقاً بنوع ما ، وقد يختلف من حالة الى اخرى تبعاً لطبيعة الافكار الملجومة التي تسعى الى التعبير عن نفسها . بيد أن ثمة عوامل عدة تفعل فعلها بحيث تكون العلاقات بين الأفكار اللاشعورية والسيرورات البدنية،التي تجدها في متناولها للتعبير عن نفسها ، أقل عسفاً واعتباطية وأقرب الى بعض التركيبات النمطية . وأهم التعيينات ، من الزاوية العلاجية ، هي تلك التي تنطوي عليها المادة النفسية العرضية : فحل لغز الاعراض يكون بالبحث عن دلالتها النفسية . ومتى ما تم تنظيف الميدان من كل ما يمكن التخلص منه بفضل التحليل النفسي ، تأتّى لنا أن نفرض فروضاً شتى ـ غالباً ما تكون صحيحة ـ بصدد الأساس البدني للأعراض ، وهو بالاجمال عضوي

وجبليّ . ومن ثم لن نكتفي ، فيما يتعلق بنوبات السعال وانحباس الصوت لدى دورا ، بالتأويل التحليلي النفسي ، بل سنكشف ايضاً ، خلف هذا التأويل ، عن العامل العضوي الذي انبثقت عنه **المسايرة البدنية** التي مكنتها من التعبير عن ميلها الى الرجل الذي تحبه في اثناء غيابه المؤقت . ولئن أدهشنا ، في هذه الحال ، الارتباط بين التعبير البدني والفكرة اللاشعورية لما توسل به من تصنع وبراعة ، فسيكون من دواعي سرورنا ان نعلم أن هذا الارتباط يولِّد في جميع الحالات ، وفي جميع الأمثلة الممكنة ، انطباعاً مماثلاً .

إني أتوقع هنا ان يوجه إلي اعتراض مفاده أنه ليس غنماً ذا شأن للتحليل النفسي أن يجد نفسه وقد تعين عليه ان يبحث عن لغز الهستيريا لا في « شكل خاص من عدم استقرار الجزيئات العصبية » ، ولا في امكانية الحالات النوامية ، بل في « المسايرة البدنية » .

ورداً على هذا الاعتراض أود أن ألح على أن اللغز لا يكون بهذه الكيفية قد تراجع الى الوراء قليلاً فحسب ، بل يكون قد طرأ عليه أيضاً تبسيط جزئي . فمن الآن فصاعداً ما عدنا نواجه اللغز برمته ، وانما فقط ذلك الجزء منه الذي يكمن فيه الطابع الخاص للهستيريا ، الطابع الذي **يميزها** عن سواها من **الاعصبة النفسية** . فالسيرورات النفسية هي في جميع الاعصبة النفسية واحدة على مدى شوط لا بأس به من الطريق ، وانما في طور لاحق فحسب يتدخل عامل المسايرة البدنية الذي يتيح للسيرورات النفسية اللاشعورية منفذاً الى الجسماني . وحيثما لا يضطلع هذا العامل بأي دور ، فإن الحالة لاتتمخض عن عرض هستيري ، بل عن شيء يمت اليه بصلة شبه ، كالرهاب على سبيل المثال ، او الوسواس ، وبالاختصار ، عرض من الاعراض النفسية .

أعود الآن الى تهمة « التمارض » التي وجهتها دورا الى أبيها . فسرعان ما اتضح لنا أن هذه المآخذ لا تتطابق مع تبكيتات ذاتية مرتبطة بأمراض سابقة فحسب ، بل كذلك مع تبكيتات تتصل بأمراض راهنة .

وفي مثل هذا الظرف تقع على عاتق الطبيب في العادة مهمة تخمين وتكميل ما لا يقدمه له التحليل إلا في صورة إشارات وتلميحات . وقد وجدتني مضطراً الى تنبيه المريضة الى أن مرضها الراهن له من الحوافز والمآرب مثل ما لمرض السيدة ك الذي كانت قد فهمت مغزاه . وقلت لها إنه كان لديها ، ولا ريب ، هدف تتأمل بلوغه بواسطة مرضها ، وان هذا الهدف لا يمكن ان يكون شيئاً آخر غير صرف أبيها عن السيدة ك . فبما ان التوسلات والحجج لم تكفِ ، فربما كانت تأمل في بلوغ هدفها عن طريق تخويف أبيها (انـظر رسالة الوداع) ، أو عن طريق استثارة شفقته (بواسطة نوبات الإغماء) ـ فإن لم يكتب لشيء من هذا كله النجاح . فعلى الأقل تكون قد انتقمت منه .

قلت لها إنها تعرف كم هو متعلق بها ، وإنه كلما سأله أحد عن صحة ابنته اغرورقت عيناه بالدموع . وأردفت قائلاً إنني على أتم اقتناع بأنها ستشفى حالاً فيما لو اعلن لها ابوها أنه ضحى بالسيدة ك من أجل صحتها . لكني أضفت أقول إني آمل ألا ينتهي به الأمر إلى فعل ذلك ، لأنها ستدرك عندئذ مدى خطورة اداة الضغط التي تملكها بين يديها ولن تتردد من ثم في كل فرصة ومناسبة في استغلال قابليتها للمرض من جديد . وقلت لها أيضاً إني أتوقع، إن رفض أبوها التسليم ، ألا تتخلى بمثل هذه السهولة عن مرضها .

أضرب صفحاً هنا عن التفاصيل التي بنيت عليها نظرتي هذه للأمور لأضيف بضع ملاحظات عامة حول دور **دوافع المرض** في الهستيريا .

ان الدوافع الى المرض ينبغي ان تُميز تمييزاً جلياً عن الأشكال التي يمكن ان يتلبسها هذا المرض ، أي عن المادة التي منها تتشكل الاعراض . فالدوافع لا تسهم في تكوين الاعراض ، كما لا تكون ماثلة في بداية المرض ؛ وانما يأتي ارتباطها به لاحقاً ، وان كان المرض لا يكتمل صرحه إلا

بظهورها[٣٣] .وينبغي ان نتوقع وجود دوافع المرض في كل حالة تنطوي على معاناة حقيقية ويكون أمدها طويلاً بقدر أو بآخر . فالعرض لا يعدو في بادىء الأمر ان يكون ضيفاً ثقيلاً على الحياة النفسية ، ويكون كل شيء مناهضاً له ، ولذا يختفي بمنتهى اليسر من تلقاء نفسه بمرور الوقت ، في الظاهر . ولكن ان تعذر عليه في بادىء الأمر أن يجد استخداماً له في الاقتصاد النفسي ، فغالباً ما ينتهي به الأمر ثانوياً إلى الظفر بوظيفة ما . ذلك أن تياراً بعينه من التيارات النفسية قد يجد مناسباً له أن يستغل العرض ، فيكتسب هذا الأخير ، من ثم ، **وظيفة ثانوية** ، ويرسي جذوره في الحياة النفسية . وكل من يشاء ان يشفي المريض من مرضه يصطدم ، على دهش عظيم منه ، بمقاومة شديدة تجعله يفطن الى أن المريض لا يرغب رغبة جادة وقاطعة ، على نحو ما يظهر عليه ، في الإبلال من علتـه[٣٤] . لنتصور أن عاملاً ، من عمال التسقيف مثلاً ، وقع من اعلى السطح وصار

٣٣ ـ (هامش اضيف سنة ١٩٢٣) ـ هذا ليس صحيحاً تماماً . ونحن ما عدنا في حل من القول بأن دوافع المرض لا تكون ماثلة في بداية المرض . وسوف يأتي في الصفحة التالية ذكر لدوافع للمرض كانت موجودة قبل ظهور المرض ، وقد اسهمت جزئياً في نشوئه . وقد تسنى لي في وقت لاحق ان احيط بالامور إحاطة افضل حينما ميزت بين الكسب الاولي والكسب الثانوي للمرض . فما الدافع الى المرض إلا الرغبة في تحقيق مكسب ما . وما سيأتي ذكره في الصفحات التالية يصدق على المكسب الثانوي للمرض . غير انه لا مندوحة لنا عن التحقق من وجود مكسب أولي في كل عصاب . فالوقوع في المرض يوفر على المريض بادىء ذي بدء مجهوداً ؛ ومن ثم فإنه ، من وجهة النظر الاقتصادية ، أنسب حل في حالة نشوب صراع نفسي (اللواذ بالمرض) ، وإن ثبت فيما بعد ، وفي غالبية الأحوال ، عدم جدوى مثل هذا المخرج . هذا الجانب من المكسب الأولي للمرض يمكن ان نطلق عليه اسم **الربح الداخلي النفسي** ؛ وهو ربح دائم ان جاز القول . وفضلاً عن ذلك ، فإن عوامل خارجية ـ وكمثال على ذلك وضع المرأة التي يضطهدها زوجها على نحو ما أشرنا سابقاً ـ يمكن أن تقدم دوافع للمرض ، فتمثل بالتالي الجانب **الخارجي** من الربح الأولي للمرض .

٣٤ ـ عبر كاتب اديب ، هو في الوقت نفسه طبيب ، آرثر شنتزلر ، أصدق تعبير عن هذه الواقعة في كتابه بارا سلزوس. « م ».

مقعداً ، ثم لجأ الى التسول عند زاوية أحد الشوارع ليتدبر قوت يومه .

ولنفترض أن واحداً من صناع المعجزات جاءه ووعده بتقويم ساقه الكسيحة وبإعادة قدرته على المشي اليه . فهل لنا ان نتوقع أن تظهر على وجهه علائم فرح عظيم ؟ صحيح أنه شعر ، وقت الحادث ، بتعاسة مفرطة ، وأدرك أنه لن يعود في مستطاعه منذ ذلك اليوم أن يعمل ، وأنه لا مناص له من أن يقضي نحبه جوعاً أو ان يعيش على الصدقات . بيد ان الشيء الذي قضى عليه بادىء الأمر بالعجز عن كسب قوت يومه صار فيما بعد مصدر رزقه ؛ فهو يعتاش الآن من عاهته . ولو جرد منها لأسقط في يده . ذلك أنه نسي ، في الفترة المنصرمة ، مهنته ، وفقد عادة العمل والكدح ، وألف البطالة ، وربما الشراب ايضاً .

ان دوافع المرض تأخذ بالانبلاج منذ عهد الطفولة . فالطفل النهم الى الحب ، والذي لا يطيب له ان يشاطره إخوته وأخواته محبة والديه ، لا يلبث ان يفطن الى ان هذه المحبة تنصب عليه بتمامها متى ما ثار قلق والديه بسبب مرضه . ومنذئذ يكتشف الطفل وسيلة لاستدرار حب والديه ، وسرعان ما يعمد الى استخدامها حالما تتوفر له المادة النفسية القادرة على انتاج حالة مَرَضية . ومتى كبرت طفلة من هذا القبيل وصارت امرأة وتزوجت ، بالتناقض التام مع متطلبات طفولتها ، من رجل لا يحفل لها ، بل على العكس يقمع إرادتها ويستغل بلا تحرز عملها ، ولا يحنو عليها ، ولا يبذل لها من ماله ، فعندئذ قد يصبح المرض سلاحها الوحيد لتثبيت مواقع قدميها في الحياة . فالمرض يوفر لها الراحة المنشودة ، ويرغم زوجها على بذل التضحية لها بالمال وعلى إيلائها من الاهتمام ما كان يضن به عليها حين كانت تنعم بعافيتها ، ويجبره على اتخاذ موقف حذر في حال شفائها ، وإلا فإن الانتكاس يقف له بالمرصاد. وظاهر الموضوعية في الحالة المرضية وطابعها اللاإرادي ، الذي لن يجد الطبيب المعالج نفسه مناصاً من الإقرار به ، يتيح للمريضة ، دونما مشاعر تبكيتية واعية ، أن تستخدم على النحو المناسب وسيلة كانت قد اختبرت نجعها في طفولتها .

ومع ذلك فإن هذا النوع من المرض ينشأ قصدياً . فالحالات المرضية توجه عادة ضد شخص معين ، ومن ثم فإنها تزول في حال غيابه . وعلى هذا فإن الحكم الأكثر « فجاجة » وابتذالاً ، الذي يطالعنا به اقارب المريض والقائمون على تمريضه من ذوي الثقافة المحدودة ، هو من وجه ما حكم صائب . فليس يخطىء من يقول ان المشلولة الطريحة الفراش ستثب على ساقيها لو اندلعت النار في الغرفة ، وان المرأة المدللة ستنسى آلامها وشكاياتها لو وقع طفلها فريسة مرض خطير أو لو تهددت بيتها كارثة داهمة . ان جميع أولئك الذين يصدرون مثل هذا الحكم على هؤلاء المرضى محقون الى حد ما ، ولكنهم يغفلون الفارق السيكولوجي بين الشعوري واللاشعوري ، وهو إغفال جائز بعد في حالة الأطفال ، ولكنه لا يعود جائزاً في حالة الراشدين . لهذا يمكن أن تبقى عقيمة ولامجدية لدى هؤلاء المرضى جميع الاحتجاجات التي تؤكد لهم أن الأمر كله منوط بالارادة ، وجميع ضروب التشجيع أو التجريح . فلا بد قبل كل شيء من محاولة إقناعهم ، عن طريق التحليل ، بوجود نية لديهم في ان يكونوا مرضى .

ان نقطة الضعف في كل طريقة علاجية في حالة الهستيريا ، بما فيها طريقة التحليل النفسي ، تكمن بصفة عامة في الكفاح ضد دوافع المرض . ومهمة القدر هنا من أسهل ما يكون : فما عليه ان يتصدى لا لجبلّة المريض ولا للخبرات المسببة لمرضه ، بل حسبه ان يزيل دافعاً من دوافع المرض حتى يبرأ المريض من دائه بصفة مؤقتة ، وربما احياناً بصفة نهائية . وغالباً ما تُخفى علينا ،نحن الاطباء، اهتمامات مرضانا الحيوية ، ولو تأتّى لنا ان نأخذ بها علماً في الغالبية العظمى من الأحوال لامتنعنا عن التسليم ، في الهستيريا ، بحدوث شفاءات عجائبية واختفاءات تلقائية كثيرة للأعراض ! ففي حالة من الحالات يكون ردح من الزمن قد انقضى ، وفي حالة أخرى تكون قد انتفت الحاجة الى مراعاة شخص بعينه ، وفي حالة ثالثة يكون الموقف برمته قد طرأ عليه تغير جذري بفعل عامل خارجي ، ومن ثم فإن الداء ، الذي كان لحد الآن مستعصياً أشد

الاستعصاء ، يختفي دفعة واحدة ، من تلقاء نفسه في ظاهر الأمر ، وفي الواقع لأن الدافع الأقوى إليه ، أي الوظيفة التي يمكن لهذا الداء ان يؤديها في الحياة ، قد انتفى .

ارجح الظن اننا نستطيع ان نعثر على دوافع داعمة للمرض في جميع الحالات المكتملة تطوراً . لكن ثمة حالات ذات دوافع داخلية صرفة ، ومن قبيلها الرغبة في إنزال عقاب بالذات ، ومن ثم الندم والتكفير . وتكون المهمة العلاجية أسهل أداء في هذه الحالات منها في الحالات التي يرتبط فيها المرض ببلوغ هدف خارجي . ولقد كان هذا الهدف بالنسبة الى دورا ، بصورة واضحة ، استدرار عطف أبيها وصرفه عن السيدة ك .

والحق أن ما من فعل من أفعال الأب أثار حنق دورا مثل تسرّعه الى اعتبار حادث البحيرة من صنع الخيال . كانت تخرج عن طورها كلما فكرت بأن الظنون ذهبت به الى أنها تخيلت الأمر تخيلاً ! وقد لبثت فترة طويلة من الزمن متحيراً في تخمين طبيعة المآخذ الذاتية التي تختفي وراء إنكارها الانفعالي لهذا التأويل للحادث . وقد كان من حقي أن أفترض وجود شيء خبيء ، لأن المأخذ الذي لا يستند الى أساس لا يجرح جرحاً دائماً . ومن ناحية أخرى ، انتهيت الى الاستنتاج بأن رواية دورا تطابق ولا بد الحقيقة كل المطابقة . فما أن فهمت قصد السيد ك ، حتى سارعت تقاطعه وتصفعه وتولي مدبرة . وقد تبدى سلوك دورا عندئذ للرجل الذي تركته مستغلقاً على فهمه كما على فهمنا ، لانه كان استنتج ولا بد ، من جملة قرائن ودلائل صغيرة ، أنه يستطيع أن يتكل على ميل عاطفة الفتاة إليه . وسوف نجد ، في اثناء مناقشتنا للحلم الثاني ، حل هذا اللغز ، وكذلك حل لغز التأنيبات الذاتية الذي عبثاً فتشنا عنه في أول الأمر .

وبما ان الاتهامات ضد الأب كانت تتكرر برتابة متعبة ، كما ان السعال كان مستديماً ، فقد وجدتني منساقاً الى الافتراض بأن هذا العرض لا بد ان يكون منطوياً على مغزى ذي صلة بالأب . زد على ذلك ان الشروط التي درجت على طلبها لتفسير عرض من الاعراض ما كانت متوفرة

الى الحد الذي يبعث على الرضى . وبمقتضى قاعدة وجدت توكيداً لها في خبرتي وتجربتي ، وان كنت لم أجترىء بعد على إنزالها منزلة القاعدة العامة ، فإن العرض يعني تمثيلاً - تحقيقاً - لتخييل FANTASME ذي مضمون جنسي ، أي موقف جنسي ؛ أو فلنقل إن دلالة واحدة على الأقل من دلالات العرض تتطابق مع تمثيل تخييل جنسي ، بينما لا وجود لمثل هذا التحديد بالنسبة الى مضمون الدلالات الأخرى . وأما ان للعرض اكثر من دلالة واحدة ، وانه يفيد في تمثيل اكثر من فكرة لاشعورية واحدة ، فهذا ما يدركه بسرعة كل من يمارس العمل التحليلي النفسي . بل بودي ان أضيف أن فكرة واحدة وتخييلاً لاشعورياً واحداً لا يكفيان بصورة تكاد تكون دائمة في تقديري لتوليد عرض .

وسرعان ما سنحت لي الفرصة لتفسير السعال العصبي بموقف جنسي تخيلي . فحين عادت دورا تلح من جديد على ان السيدة ك لا تحب اباها إلا لأنه رجل **مقتدر** ، فطنت ، بفضل بعض دقائق طريقتها في الكلام - وهي دقائق أغفلها هنا مثلما أغفل الجزء الأكبر من تقنية التحليل النفسي الصرفة - الى أن هذه العبارة تخفي نقيضها ، وهو ان أباها رجل **غير مقتدر** . وهذا ما لا يمكن فهمه إلا بالمعنى الجنسي : إن أبي ، كرجل ، عنين[٣٥] . ولما وافقت على هذا التأويل ، وأقرت بأن فكرة كهذه قد راودتها شعورياً ، بينت لها التناقض الذي تتخبط فيه حين تصر ، من جهة أولى ، على الاعتقاد بأن علاقات أبيها بالسيدة ك علاقات غرامية ، وحين تجزم ، من الجهة الثانية ، بأن أباها عنين ، أي عاجز عن الاضطلاع بمثل هذه العلاقات . وقد دل جوابها على أنها لم تكن بحاجة الى التسليم بهذا التناقض . فهي تعرف حق المعرفة ، كما قالت ، أنه توجد اكثر من طريقة

---

٣٥ - الاقتدار بالالمانية VERMOGEN يعني الاقتدار المالي كما يعني الاقتدار الجنسي . كما ان العجز بجميع معانيه ، كعنة وكفقدان للقوة ، له لفظ واحد . « م » .

للفوز بالاشباع الجنسي . بيد أنني عجزت مرة أخرى عن الاهتداء الى مصدر معارفها . وحين سألتها عما اذا كانت تقصد بذلك استخدام اعضاء اخرى غير الاعضاء التناسلية في العلاقات الجنسية ، ردت بالايجاب ؛ وعندئذ امكن لي ان اردف قائلاً ان الفكر يذهب بها ، ولا بد ، الى تلك الاعضاء من الجسم التي هي عندها في حالة تخرش : الحلق وتجويف الفم . والحق أنها كانت تبغي أن تكتم هذه الأفكار حتى عن نفسها ، ولكن ما كان للعرض ان يتظاهر أصلاً لو كانت لديها فكرة جلية عن واقع الأمور . على أن تتمة المحاكمة العقلية كانت محتومة ، إذ أن ذلك السعال الذي كان ينتابها على نوبات والذي ينشأ في العادة عن دغدغة في الحلق ، كان يمثل موقف اشباع جنسي **عن طريق الفم** [٣٦] بين الشخصين اللذين كانت صلتهما الغرامية شغلها الشاغل بلا انقطاع . ولئن اختفى السعال بعيد وقت وجيز من هذا التفسير الذي وافقت عليه ضمنياً ، فهذه واقعة تتمشى الى حد بعيد مع تصوري ؛ بيد انني لم أشأ ان أعلق على هذا التغير أهمية أكبر مما ينبغي ، لأنه كثيراً ما كان يحدث من قبل بصورة تلقائية .

ان أثارت هذه النبذة من التحليل لدى القارىء الطبيب ، علاوة على عدم التصديق الذي هو حق من حقوقه ، تباغتاً واستفظاعاً ، فإني على أهبة الاستعداد لأن اتفحص هنا بالذات مبررات هاتين الاستجابتين . فأنا افترض ان التباغت ناجم عن جراتي في الكلام مع فتاة ـ أو بصفة عامة مع امرأة ادركت سن الزواج ـ في مثل هذه المواضيع الشائكة والكريهة الوقع . كما ان الاستفظاع يرجع في اغلب الظن الى احتمال تعرّف فتاة عفيفة الى مثل تلك الممارسات والى امكانية انشغال خيالها بها . وبالنسبة الى النقطتين كلتيهما سأوصي بالتأني والتبصر . فليس في أي من

٣٦ ـ باللاتينية في النص: PER OS «م» .

الحالين ما يدعو الى الحنق والاستهجان . ففي وسع المرء أن يكلم الفتيات والنساء في جميع المسائل الجنسية دون ان يلحق أذى بهن ودون أن يضع نفسه موضع الشبهة ، وهذا بشرط أن يأخذ بأسلوب معين في فعل ذلك ثم أن يولّد لديهن الاقتناع بأن الأمر محتوم لا مناص منه . إن طبيب الامراض النسائية يبيح لنفسه أيضاً ، في شروط مماثلة ، ان يفرض عليهن ضروباً شتى من التعري . وخير أسلوب في الكلام عن هذه الأمور هو الأسلوب الجاف والمباشر ؛ وهو في نفس الوقت ابعد ما يكون عن التهتك الذي تعالج به هذه المواضيع في « المجتمع » ، ذلك التهتك الذي تألفه النساء والفتيات في العادة كل الإلفة . انني أسمي الاعضاء والظاهرات بأسمائها التقنية ، وأكاشف المريضة بهذه الاسماء ان كانت مجهولة لديها J'APPELLE UN CHAT UN CHAT[٣٧] . لقد سمعت بكل تأكيد عن أشخاص ، من اطباء وغير اطباء ، يعربون عن سخطهم من طريقة في العلاج تدور فيها مثل تلك الاحاديث ، ويبدو عليهم وكأنهم يحسدونني ، أنا أو مرضاي ، على ما نجتنيه ، في تقديرهم ، من دغدغة شهوية من الخوض فيها . والحال ان معرفتي باستقامة هؤلاء السادة تغنيني عن الأبه لما يتقوّلون . ولن أقع في شرك الإغواء بكتابة اهجية ضدهم . ولست أريد أن أذكر سوى شيء واحد ، وهو أنه كثيراً ما يبعث الحبور في نفسي ان أسمع واحدة من مريضاتي ، ممن لم يكن يسهل عليهن في البداية تقبل الصراحة في مناقشة الأمور الجنسية ، تهتف فيما بعد بتعجب : « حقاً ان طريقتك أدنى الى اللياقة بكثير من حديث فلان ! » .

ينبغي ، قبل التصدي لمعالجة حالة هستيريا ، ان يتوفر لدى المرء الاقتناع بضرورة التطرق الى المواضيع الجنسية ، أو على الأقل أن يتوفر لديه الاستعداد للاقتناع بذلك بفعل التجربة . وعندئذ يقول مع القائل :

٣٧ ـ بالفرنسية في النص : حرفياً **اسمي القطة قطة**، والمعنى : اسمي الشيء باسمه . «م» .

« لا تصنع العجة بدون كسر البيض »[38]. والمرضى أنفسهم يسير إقناعهم ؛ والفرص المتاحة لذلك في اثناء العلاج كثيرة حقاً . ولا داعي للتحرج من الخوض واياهم في الحديث عن وقائع الحياة الجنسية السوية أو المرضية . وبشيء من الحرص والفطنة ، لا يتعدى كل عملنا ان نترجم الى شعورهم ما كانوا يعرفونه من قبل لاشعورياً ، وكل فاعلية العلاج ترتكز تحديداً الى الادراك بأن التأثير الذي تمارسه الطاقة الوجدانية لفكرة لاشعورية ، أقوى ، بل أشد ضرراً ـ بالنظر الى استحالة لجمه ـ من ذاك الذي تمارسه الطاقة الوجدانية لفكرة شعورية . ونحن لا نجازف اطلاقاً بإفساد فتاة صبية غرة ؛ فحيثما تنعدم المعرفة الجنسية ، حتى في اللاشعور، لا يحدث أي عرض هستيري على الاطلاق . وحيثما توجد الهستيريا ، لا يعود ثمة مجال للكلام عن « طهر المشاعر » بالمعنى الذي يقصده الأهل والمربون . وقد اقتنعت بأننا نستطيع الاطمئنان الى صدق هذه القاعدة بلا استثناء بالنسبة الى اطفال في العاشرة أو الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من العمر ، من ذكور وإناث .

وان تكن فرضيتي صحيحة ، فإنها تُقابَل باستجابة انفعالية ثانية ، لكنها توجه هذه المرة ضد مريضتي ، لا ضدي . أقصد بها الاستفظاع الذي يوحي به الطابع المنحرف لمخيلة هذه الأخيرة . وإني لأؤكد بالمناسبة انه لا يليق بالطبيب، في رأيي، أن يصدر احكام ادانة بمثل هذا الاحتداد . أنا لا أرى ، مثلاً ، من داعٍ لأن ينتهز الطبيب الذي يقدم وصفاً بشذوذ الغرائز الجنسية كل فرصة وسانحة ليقحم على النص جملة يعبر بها عن تقززه الشخصي من مثل هذه الأمور المثيرة للاشمئزاز . فنحن نواجه هنا واقعة معينة ، وإني لآمل أن نتعلم كيف نألفها ، قامعين مشاعرنا

٣٨ ـ بالفرنسية ايضاً في النص :

POUR FAIRE UNE OMELETTE,IL FAUT CASSER DES OEUFS

«م».

الشخصية . وعلينا أن نتكلم بلا استهجان عما نسميه بالانحرافات الجنسية ، أي تعديات الوظيفة الجنسية ان من حيث المناطق البدنية وان من حيث الموضوع الجنسي . وإن ميوعة الحدود التي ينبغي أن تحصر ضمن نطاق الحياة الجنسية التي يقال لها بالسوية ، تبعاً للسلالات البشرية والعصور ، ينبغي أن تكون كافية بحد ذاتها للتخفيف من غلواء المتحمسين . ولا يجوز لنا ان ننسى أن اكثر هذه الانحرافات إثارة للاشمئزاز في نظرنا ، وهو حب الرجل الشهواني للرجل ، لم يكن موضع تسامح فحسب لدى شعب يبزنا ثقافة ، أعني الشعب الاغريقي ، بل كان تناط به ايضاً وظائف اجتماعية هامة . وكل امرىء منا يتعدى في حياته الجنسية الخاصة ، تارة في اتجاه وطوراً في آخر ، الحدود الضيقة لما يفترض أنه هو السواء . وما الانحرافات بضرب من الحيوانية أو الانحطاط بالمعنى الانفعالي للكلمة . وانما مردها الى نمو بذور ينطوي عليها جميعها الاستعداد الجنسي اللامتمايز عند الطفل ، وهي البذور التي عليها المعول في حال قمعها أو تحويلها نحو أهداف جنسية عليا ـ الإسماء ـ في تزويد عدد كبير من الانجازات الحضارية بالطاقة اللازمة . فحين **يصبح** شخص ما منحرفاً على نحو فظ ومكشوف ، فمن الأصح ان نقول إنه **بقي** منحرفاً ، لأنه يمثل طور وقوف في النمو . والمعصوبون النفسيون هم جميعاً أشخاص ذوو ميول منحرفة نامية عظيم النمو ، ولكنها كُبتت ، فصارت لاشعورية في أثناء نموهم. وعلى هذا فإن تخييلاتهم واستيهاماتهم اللاشعورية تنمّ عن المضمون نفسه الذي تكشف عنه الأفعال الحقيقية للمنحرفين ، حتى وان كانوا لم يقرؤوا **السيكوباتية الجنسية** لكرافت ـ ايبنغ ، وهو الكتاب الذي يعزو اليه السذج دوراً بالغ الخطورة في نشوء الميول الانحرافية. فالاعصبة النفسية هي ، ان جاز التعبير ، **الصورة السالبة** للانحرافات . فالجبلّة الجنسية ، التي تتضمن أيضاً التعبير عن الوراثة ، تفعل فعلها لدى المعصوب بالتضافر مع المؤثرات الحياتية العارضة التي من شأنها ان تشوش تفتح الجنسية السوية . فالمياه ، متى

ما اعترضها عائق في مجرى النهر ، ترتد نحو مجار قديمة كان مقيضاً لها ان تجف . وإن الطاقات الغريزية المقيض لها ان تُنتج أعراضاً هستيرية تنبع لا من الجنسية السوية المكبوتة فحسب ، بل كذلك من النوازع المنحرفة اللاشعورية[٣٩].

ان الاشكال الأقل إثارة للاشمئزاز من بين ما يسمى بالانحرافات الجنسية شائعة ومنتشرة على سعة بين شعوبنا ، على نحو ما يعرفه الناس قاطبة باستثناء الاطباء الذين يضعون مؤلفات في هذه المواضيع . أو بالأحرى إن هؤلاء المؤلفين يعرفون ذلك أيضاً ، ولكنهم يجاهدون فقط لنسيانه لحظة يمسكون بالريشة للكتابة عنه . اذن لم يكن مما يبعث على الدهشة أن تعمد مريضتنا الهستيرية ، التي على وشك أن تبلغ التاسعة عشرة من العمر ، والتي سمعت عن مثل تلك العلاقات الجنسية (مص القضيب) ، الى أن تستوهم في لاشعورها استيهاماً من ذلك القبيل وان تعبر عنه بإحساس بالتخرش في حلقها وبالسعال . بل لم يكن مما يبعث على الدهشة ان نراها تتوصل ، حتى بدون ايضاحات خارجية ، الى مثل ذلك الاستيهام ، على نحو ما أتيح لي أن أتحقق منه لدى مرضى آخرين . والحق أن الشرط البدني المسبق لمثل هذا الابتداع الحر لتخييل يتطابق مع ممارسات المنحرفين كان يرتبط عند دورا بواقعة جديرة بأن تسترعي الانتباه . فهي تذكر جيداً انها كانت في طفولتها **مصاصة إبهام** . ويذكر الأب ايضاً أنه فطمها عن هذه العادة التي استمرت لديها الى سنتها الرابعة أو الخامسة . وقد احتفظت دورا نفسها في ذاكرتها بصورة واضحة من صور طفولتها الأولى : فهي ترى نفسها جالسة أرضاً في احدى

٣٩ ـ هذه الملاحظات عن الانحرافات الجنسية كُتبت قبل سنوات عديدة من نشر كتاب ج . بلوخ الممتاز **مساهمة في اتيولوجيا السيكوباتية الجنسية** ، ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣ . انظر ايضاً كتاب **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** الذي صدر هذا العام (١٩٠٥) (انظر ترجمتنا العربية الصادرة بهذا العنوان عن دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ . «م») .

الزوايا تمص إبهامها الأيسر ، فيما كانت تشد في الوقت نفسه ، بيدها اليمنى ، وبصورة ايقاعية ، اذن أخيها الذي يجلس بهدوء وطمأنينة الى جانبها . وهذا شكل مكتمل من إشكال الإشباع الذاتي عن طريق المص حدثتني عنه أيضاً مريضات أخريات ، ممن أصبن في زمن لاحق بالخدار الجنسي والهستيريا . وقد زودتني واحدة منهن بمعلومات تلقي ضوءاً ساطعاً على أصل هذه العادة الغريبة . فهذه المرأة الشابة ، التي ما تخلت قط أصلاً عن عادة التمصص ، رأت نفسها ، من خلال ذكرى من ذكريات طفولتها يرجع عهدها ، فيما يظهر ، الى النصف الأول من عامها الثاني ، وهي ترضع من ثدي مرضعتها فيما تشد ايقاعياً أذنها . وما من أحد سيماري ، فيما أفترض ، في ان الغشاء المخاطي للشفتين والفم يمكن ان يوصف بأنه **منطقة شهوية** أولية ، وفي أنه يحتفظ بشيء من هذه الصفة من خلال القبلة ، التي تُعد سوية . والنشاط الكبير والمبكر لهذه المنطقة الشهوية يمهد من ثم لظهور « مسايرة بدنية » لاحقة في القناة المخاطية التي تبدأ من الشفتين . وفي زمن لاحق ، حين يصبح الموضوع الجنسي الحقيقي ، القضيب ، معروفاً بالفعل ، وتنشأ ظروف تزيد من جديد من استثارة المنطقة الفموية التي حافظت على صفتها الشهوية ، لا يحتاج الأمر الى جهود تخيلية كبيرة لإحلال الموضوع الجنسي الحالي ، القضيب ، محل الموضوع الأصلي ، الحلمة ، أو محل الاصبع الذي ناب منابها ، وإحياء الموقف المناسب للاشباع . وهكذا نرى أن هذا التخييل الانحرافي ، الجارح الى اقصى حد ، المتمحور حول مص القضيب ، له أصل بريء كل البراءة . فما التخييل المذكور إلا طبعة جديدة من تلك الخبرة التي ينبغي وصفها بأنها ما قبل تاريخية ، والتي تتمثل في مص ثدي الأم أو المرضع ، وهي خبرة تدب فيها الحياة من جديد متى وقع النظر في وقت لاحق على اطفال يرضعون . وغالباً ما يلعب ضرع البقرة ، كصورة وسيطة ، دور الرابط بين الحلمة والثدي .

ان التأويل ، الذي تقدم بيانه ، لأعراض دورا ذات الصلة بالحلق

يمكن ان يستثير ملاحظة اخرى . والسؤال الذي ينطرح في هذه الحال هو : « كيف يتفق هذا الموقف الجنسي المتخيل من قبلها مع واقعة ظهور الاعراض المرضية واختفائها لديها بالتوافق مع غياب الرجل الذي تحبه وحضوره ؟ » . أفلا تكون الفكرة المضمرة في هذه الحال ، واذا ما أخذنا بعين الاعتبار سلوك الزوجة ، هي التالية : « لو كنت أنا زوجته لكنت أحببته على نحو مغاير تماماً ، ولكنت وقعت مريضة (من الحزن في اغلب الظن) في اثناء غيابه ، ولاستعدت صحتي وعافيتي (من الفرح) لدى عودته » . إن خبرتي في فك لغز الاعراض الهستيرية تأذن لي أن أجيب عن هذا السؤال بأنه ليس من الضروري أن تتوافق جميع دلالات عرض من الاعراض فيما بينها، أي أن تتكامل لتؤلف كلاً واحداً . فحسب هذه الوحدة أن يكون عمادهـا الموضوع الذي عنه تمخضت جميع التخييلات المختلفة . ثم ان توافقاً من النمط الأول ليس بمنعدم في الحالة التي نحن بصددها ؛ فإحدى الدلالتين ترتبط بتلاحم اكبر مع السعال ، بينما ترتبط ثانيتهمـا بانحباس الصوت وبالطابع الدوري لتظاهر الأعراض؛ وربما امكن لتحليل أعمق وأبعد شأواً أن يكشف عن تعيين نفسي لدقائق المرض اكثر تكاملاً بكثير . وقد رأينا من قبل أن العرض الواحد تناظره **في آن واحد** ، وبصورة مطردة ، عدة دلالات ؛ ولنضف أنه يمكن له أيضاً ان يتلبس **بالتعاقب** عدة دلالات . ومن الممكن للعرض ، على مر السنوات ، ان يغير احدى دلالاته أو دلالته الرئيسية ، كما يمكن للدور القيادي ان ينتقل من دلالة الى اخرى . ولكأن المصاب ينطوي بطبيعته على نزعة الى المحافظة ، بقدر الامكان ، على العرض متى ما تكوّن ، حتى ولو فقدت الفكرة اللاشعورية التي وجدت فيه تعبيرها قدراً كبيراً من أهميتها . لكن من اليسير ايضاً تقديم تفسير ميكانيكي لهذا الميل الى المحافظة على العرض ؛ فتكوين عرض كهذا أمر بالغ الصعوبة ، وقلب الاثارة النفسية الخالصة الى إثارة بدنية - وهذه الواقعة هي ما أسميتها **بالتحول** - يرتبط بالعديد من الشروط المؤاتية ، والمسايرة البدنية التي هي شرط لازم لهذا التحول صعبة المنال

للغاية بحيث ان الحافز الى تفريغ الاثارة اللاشعورية يحاول ان يسلك ، ما امكن ، طريقاً للتفريغ كان قد سُلك من قبل . ويبدو ان اقامة روابط تداعٍ بين فكرة جديدة مطلوب تفريغها وبين أخرى قديمة ما عادت بحاجة الى التفريغ أمر أيسر بكثير من استحداث تحول جديد . فالاثارة تنساب ، عبر الطريق المطروق من قبل ، من مصدر الاثارة الجديد الى المصب السابق ، وبذلك يشبه العرض ، كما ورد في الانجيل ، زقاً قديماً صب فيه نبيذ جديد . ولكن ان بدا ، بمقتضى ذلك ، ان الجانب البدني من العرض الهسيتري هو العنصر الأثبت ديمومة والأعصى على الاستبدال، وأن الجانب النفسي هو العنصر الأسهل حراكاً والأيسر استبدالاً ، فلا ينبغي ان نستخلص من هذه العلاقات المنزلة التي تعود الى كل من الجانبين . فالجانب النفسي هو ، من زاوية العلاج النفسي ، الجانب الأهم على الدوام .

ان تكرار دورا بلا انقطاع للأفكار عينها عن علاقة أبيها بالسيدة ك قد اتاح أيضاً للتحليل ان يصل الى كشف مهم آخر .

فمن المباح لنا ان نصف هذه المنظومة من الأفكار بأنها فائقة القوة ، بل **معضّدة ومتسلطة** بحسب تعبير فرنيكه WERNICKE . وعلى الرغم من مضمونها الصحيح في ظاهر الأمر ، فإن طابعها المرضي تشي به الخاصية التالية ، وهي أن جميع الجهود العقلية الشعورية والارادية من جانب المريضة تقف عاجزة عن إلغائها أو النيل منها . وبالمقابل ، يمكن للمرء ان يتحكم بأية منظومة سوية من الأفكار ، مهما تكن شدتها . وكانت دورا تشعر تماماً بأن افكارها عن أبيها خليقة بأن تحاكم بطريقة خاصة . وكثيراً ما كانت تئن وتشكو : « لست أستطيع ان افكر بشيء آخر . وأخي لا يزال يردد على مسامعي أنه ليس من حقنا ان ننتقد سلوك أبينا ، وانه ربما كان من واجبنا ان نُسعد لأنه وجد امرأة يستطيع ان يتعلق بـهـا ، ما دامت ماما تسيء فهمه الى هذا الحد . وإني أقر بأن أخي يقول الحق،

وكان بودي ان افكر مثله ، لكني لا أستطيع. لا أستطيع ان أغفر لأبي »[٤٠].

والآن ما ينبغي فعله حيال فكرة متسلطة كهذه ، وبعد ما عرفنا دوافعها اللاشعورية ولا جدوى الاعتراضات التي يمكن ان توجه ضد هذه الأخيرة ؟ لا بد لنا من الاقرار بأن **هذه المنظومة من الأفكار الفائقة القوة تدين بتعضيدها للاشعور**.فلا سبيل الى تبديدها بالتالي بالجهد الفكري، إما لأنها تضرب هي نفسها بجذورها في المادة اللاشعورية المكبوتة ، وإما لأن فكرة لاشعورية تختبيء وراءها . وفي الحالة الأخيرة تكون هذه الفكرة اللاشعورية مناوئة لها بصورة مباشرة في غالبية الاحيان . والافكار المتعارضة ، المتضادة، تكون مترابطة على الدوام فيما بينها بعرى وثيقة، وفي كثير من الاحيان متزاوجة بحيث تكون الواحدة منها **شعورية الى اقصى حد فيما تبقى نقيضتها مكبوتة ولاشعورية** . وهذا الترابط هو نتيجة سيرورة الكبت . وبالفعل ، غالباً ما يتم الكبت على نحو تتعضد معه الفكرة المضادة للفكرة التي يتعين كبتها تعضيداً مسرفاً . وهذا ما أسميه بالتعضيد **الارتجاعي** ، كما أني أصف هذه الفكرة ، التي تثبتت في الشعور وتصلبت بشكل يتعذر معه زحزحتها ، مثلها في ذلك مثل الحكم المسبق ، بأنها **فكرة ارتجاعية** . وتكون علاقة هاتين الفكرتين واحدتهما بالاخرى في مثل هذه الحال أشبه بالعلاقة بين رأسي إبرتين مغنطيسيتين معطّلتين[٤١]. فالفكرة الارتجاعية تبقي ، بفضل بعض الغلو في الشدة ، على الفكرة المنكرة أسيرة الكبت ، ولكنها تغدو هي نفسها، لهذا السبب

---

٤٠ ـ ان فكرة متسلطة كهذه ، ومصحوبة باكتئاب عميق ، هي في كثير من الاحيان العرض الوحيد لحالة مرضية يطلق عليها احياناً اسم « السويداء » ، ولكنها قابلة للتفسير ، بواسطة التحليل النفسي ، على أنها هستيريا .

٤١ ـ الابرة او الابر المعطلة : هي الابر المغنطيسية المتناظرة والعديمة التأثر بالجاذبية الارضية . «م».

بالذات ، محصنة ضد المجهود الفكري الشعوري . وأنسب وسيلة لتجريد الفكرة المتسلطة من قوتها المفرطة هي في هذه الحال جلب الفكرة اللاشعورية المضادة لها الى مجال الشعور .

وينبغي لنا أيضاً ألا ننسى أنه قد تصادفنا حالات يرجع فيها تسلط الفكرة لا إلى سبب واحد من هذين السببين ، بل الى تضافرهما . وقد تصادفنا كذلك تراكيب أخرى ، بيد أنه يكون من السهل في هذه الحال إرجاعها الى التراكيب السابقة .

لنتحقق ، من خلال المثال الذي تقدمه لنا دورا ، من صحة فرضيتنا الأولى التي مؤداها ان الفتاة تجهل بأصل انشغالها الاستحواذي بعلاقة ابيها بالسيدة ك ، لأن هذا الأصل كامن في اللاشعور. وبالرجوع الى الموقف ، والى الاعراض ، لا يعسر علينا ان نتكهن بطبيعة هذا الأصل . فسلوك دورا ينم عن اهتمام اكثر حدة من ذاك الذي يمكن لنا ان نتوقعه من جانب ابنة،إذ كانت تشعر وتتصرف بالاحرى كزوجة غيور،وكما كان من حق أمها ان تفعل . وهي بوضعها أبيها امام هذا الاحراج : « إما هي وإما أنا » ، وبما كانت تثيره معه من مشاجرات ، وإذ كانت تهدده بالانتحار ، كانت تضع نفسها بصورة واضحة موضع أمها . ولئن صح أن السعال ناشيء في أصله عن تخيل موقف جنسي ، فهذا معناه ان دورا كانت تضع نفسها موضع السيدة ك.وعليه،فقد كانت تتماهى مع المرأتين المحبوبتين من قبل أبيها : المرأة التي أحبها من قبل والمرأة التي يحبها الآن . وبوسعنا بمنتهى اليسر ان نخلص من ذلك كله إلى ان تعلقها بأبيها كان أقوى بكثير مما تعي ، أو مما لا تريد التسليم به ، وباختصار ، أنها كانت مغرمة بأبيها .

لقد تعلمت ان أنظر الى نظير هذه العلاقات الحبية اللاشعورية بين الأب وابنته،والأم وابنها،على انها انبعاث لبراعم احاسيس طفلية.

ويمكن تعرفها من عواقبها اللاسوية . وقد عرضت في غير هذا المكان[٤٢] مدى التبكير الذي تتظاهر به الجاذبية الجنسية بين الأهل والاولاد ، وأوضحت أن أسطورة أوديب ينبغي أن تفهم على أنها اقتباس شعري لما هو نمطي في هذه العلاقات . هذا الميل المبكر من جانب الابنة الى أبيها ، ومن جانب الابن الى أمه ، وهو الميل الذي نجد في اغلب الظن أثراً واضحاً له لدى الغالبية العظمى من الناس ، ينبغي أن نعتبره أشد قوة ، من البداية ، لدى الاشخاص الذين تهيئهم جبلّتهم للعصاب ، ولدى الاطفال المبكرين في النضج والنهمين الى العطف . وتتدخل عندئذ مؤثرات اخرى لا مجال هنا للبحث فيها ، وهي مؤثرات تثبّت الميل الحبي البرعمي أو تعززه بحيث يغدو من عهد الطفولة ، أو ابتداء من سن البلوغ فقط ، شيئاً شبيهاً بالانجذاب الجنسي ، شيئاً يتحكم ويستأثر ، كهذا الانجذاب ، بالليبيدو[٤٣] . والحال ان الظروف الخارجية التي أحاطت بمريضتنا لم تكن مما لا يتمشى مع مثل هذا الافتراض . فلقد شعرت على الدوام بالانجذاب نحو أبيها ؛ وكثرة الامراض التي عانى منها زادت من محبتها له ؛ وفي بعض فترات مرضه لم يكن يسمح لأحد سواها بأن يبذل له العناية المعهودة التي يتطلبها المريض ؛ ثم ان اباها ، باعتزازه بذكائها المبكر ، جعل منها ، وهي ما تزال طفلة ، نجيته والمؤتمنة على أسراره . والحق انها هي ، لا أمها ، التي جردت من اكثر من وظيفة من وظائفها على أثر ظهور السيدة ك .

حين كاشفت دورا بأني أعتبر ميلها الى أبيها حالة حب حقيقية بكرت الى الظهور ، اجابتني كعادتها: « لا اتذكر ذلك » ، لكنها سرعان ما كشفت

٤٢ ـ في كتابي تفسير الاحلام . ص ١٧٨ ، وفي المبحث الثالث من ثلاثة مباحث في نظرية الجنس .

٤٣ ـ ان العامل الحاسم هنا هو بوجه الاحتمال الظهور المبكر لاحاسيس تناسلية حقيقية ، إما عفوية ، وإما نتيجة الاغواء أو الاستمناء (انظر لاحقاً) .

لي عن واقعة مشابهة تتعلق بابنة خالتها ، وهي فتاة في السابعة من العمر ، كان كثيراً ما يتراءى لدورا أنها واجدة لديها صورة لطفولتها بالذات . فإن ابنة الخالة الصغيرة قد شهدت مرة مناقشة عاصفة بين والديها ، ولما قدمت دورا لزيارتها بعيد ذلك بقليل همست في أذنها : « لا يمكنك ان تتصوري كم أمقت هذه المرأة ! (مشيرة الى امها) ويوم ستموت سأتزوج بابا » . لقد درجت على أن أنظر الى التداعيات التي تنم عن شيء يتفق مع مدعاي على أنها توكيد وتأييد من اللاشعور لما أفترضه . فليس في وسع اللاشعور أن ينطق بغير هذه الـ « نعم » ؛ ولا وجود على الاطلاق لـ « لا » لاشعورية[٤٤] .

ان حالة الحب تلك تجاه أبيها لم تظهر للعلن على امتداد سنوات طوال ؛ بل على العكس من ذلك ، فقد أقامت دورا فترة مديدة من الزمن على أطيب علاقة مع المرأة التي نابت منابها لدى أبيها ، بل إنها عملت ، كما علمنا من تبكيتاتها الذاتية، على تيسير اتصال هذه المرأة بأبيها. وعليه، فإن هذا الحب (لأبيها) لم يعاود انتعاشه إلا حديثاً ، وبوسعنا في هذه الحال ان نتساءل عن الهدف من هذا الانبعاث . من الواضح أنه حدث كعرض ارتجاعي كبحاً لشيء آخر ما يزال على قوته وفعاليته في اللاشعور . وقد حملتني جملة الظروف على ان أفترض ، بادىء الأمر ، أن هذا الشيء المكبوح هو حبها للسيد ك . ولم يكن لي مناص من الافتراض بأن هذا الحب كان مستمراً ، ولكنه اصطدم ، منذ حادث البحيرة ، ولأسباب مجهولة ، بمقاومة قوية ، وبأن الفتاة قد بعثت وعززت هواها القديم لأبيها حتى لا تحتفظ بأية فكرة شعورية عن أول حب ساورها في صباها ، ثم غدا الآن أليماً موجعاً بالنسبة اليها . وعندئذ فطنت ايضاً الى صراع كان من

٤٤ ـ (حاشية اضيفت عام ١٩٢٣) ـ ثمة شكل آخر مثير للاهتمام وجدير بالثقة التامة للتأييد من قبل اللاشعور ، ما كنت قد تبينته بعد وقتئذ ، وهو شكل يتجلى في هتاف المريض : « لم يخطر لي ذلك » أو « لم افكر بذلك » . وهذا يعني : « اجل ، كان ذلك لاشعورياً عندي » .

شأنه ان يقلب الحياة النفسية للفتاة رأساً على عقب . فقد غمرتها ، من جهة اولى ، مشاعر الأسف لرفضها عروض السيد ك ، واستبد بها الحنين اليه والى شواهد حبه الصغيرة؛ وقامت في نفسها ، من الجهة الثانية ، وفي مواجهة انفعالات الحب والصبابة هذه، مشاعر مضادة قوية ، ومن جملتها كبرياؤها التي كان يسيراً الحدس بها . وهكذا توصلت الى إقناع نفسها بأن الأمر قد انتهى بينها وبين السيد ك ـ وذلك هو الكسب الذي جنته من سيرورة الكبت النمطية هذه ـ ولكنها اضطرت مع ذلك الى ان تستنجد ، كيما تقاوم الحب الذي كان يندفع باستمرارها الى شعورها ، بحبها الطفلي لأبيها وأن تغلو فيه وتشط. ولئن وقعت، من جهة اخرى، فريسة غيرة مسرفة ، فإن هذه الواقعة كانت قابلة للتفسير بطريقة أخرى ايضاً[٤٥] .

لقد توقعت ان تقابل دورا تفسيري هذا بمعارضة جازمة . غير أن كلمة «لا» التي يقابلنا بها المريض عندما نسوق للمرة الاولى الى ادراكه الشعوري الفكرة المكبوتة ، إن هي إلا دليل على الكبت ؛ ودرجة الجزم في هذه الـ «لا» تتيح لنا بنوع ما ان نقيس شدة هذا الكبت . فإن لم نعتبر هذه الـ «لا» تعبيراً عن حكم متجرد ومنـزه عن الغرض، وهذا بالفعل ما لا يقتدر المريض عليه ، وان ضربنا عنها صفحاً وواصلنا عملنا التحليلي ، فسرعان ما تطفق تتراكم لدينا الأدلة الاولى على أن الـ «لا» تعني في مثل هذه الحال الـ «نعم» المتوقعة . فقد أقرت دورا بأنها لا تستطيع أن تكنّ للسيد ك ما يستأهله من ضغينة . وقد روت لي أنها التقته يوماً في الشارع ، فيما كانت تتنزه مع ابنة خال لها ما كانت تعرفه . فهتفت ابنة الخال هذه على حين فجأة : «ما بـك ، يا دورا ؟ لقد شحبت شحوب الموتى ! » . ولم تكن هي نفسها قد انتبهت الى شيء من هذا التغير ، لكني أوضحت لها ان سيماء الوجه والتعبير عن الانفعالات يخضعان لقوى اللاشعور اكثـر من

٤٥ هذا ما سنكتشف عنه لاحقاً .

خضوعهما لقوى الشعور ، وأنهما يفضحان هذا اللاشعور وينمان عنه[٤٦] . وفي مرة اخرى ، وبعد ما مال مزاج دورا لعدة ايام على التوالي الى المرح والجذل المطردين ، قدمت إليّ بمزاج عكر للغاية ، دون ان تستطيع أن تتبين تفسيراً لذلك. وقالت «إن كل شيء اليوم ينغصني ويسخطني». كان ذلك يوم ميلاد عمها ، وما استطاعت ان تعقد العزم على تهنئته ، ولم تدر لذلك سبباً . وبما أن معين تفسيراتي قد نضب في ذلك اليوم ، فقد تركتها تواصل كلامها ، فإذا بها تتذكر على حين بغتة ان اليوم هو أيضاً يوم عيد السيد ك . وهذا شيء ما توانيت عن استخدامه ضدها . وبات من اليسير عندئذ تفسير العلة في ان الهدايا الجميلة التي تلقتها في يوم ميلادها هي قبل بضعة أيام لم تلق من نفسها سروراً . فقد كانت تنقصها هدية ، هي هدية السيد ك ، وقد كانت عندها أثمن الهدايا بطبيعة الحال .

ومع ذلك ، بقيت دورا فترة اخرى من الزمن تعارض مدعاي الى ان ظهر ، عند اواخر التحليل ، الدليل الساطع على صحة افتراضاتي .

لنشر الآن الى تعقيد آخر ما كنت بكل تأكيد لأفسح له مجالاً هنا فيما لو كنت شاعراً يريد ان يصور في قصة قصيرة هذه الحالة النفسية، بدلاً من كوني طبيباً يتحتم عليه تشريحها . فالعنصر الذي سأشير إليه ليس بوسعه إلا ان يعكر ويشوش ويكسف ذلك الصراع البديع الجمال ، القمين بأن يحاط بهالة من الشاعرية ، الذي استطعنا تبينه لدى دورا . ولا شك في ان الشاعر كان سيضحي ، وعن حق ، بهذا العنصر بداعي الرقابة ولا سيما ان الشاعر عندما يزج نفسه في أمور علم النفس يبسّط ما يصوره ويحذف منه بعض أجزائه . وبالمقابل ، فإن القاعدة في الواقع الذي أسعى الى وصفه هنا هي تعقيد الدوافع وتراكم النزعات والانفعالات النفسية

٤٦ ـ انظر شيلر: **اغنية الفارس توغنبرغ** :
بهدوء أراك تظهرين .
وبهدوء أراك تغيبين .

وتداخلها ، وبالاختصار ، تعدد التعيين . فخلف الفكرة المتسلطة لدى دورا عن طبيعة علاقات أبيها بالسيدة ك ، كان يختفي في الواقع شعور بالغيرة موضوعه السيدة ك نفسها ـ اي شعور لا أساس له يمكن أن يقوم عليه سوى الحب الجنسي المثلي . فمن المعروف منذ عهد بعيد ، ومما جرى التنويه به مراراً وتكراراً ، ان الصبيان والصبايا تصدر عنهم في سن البلوغ ، حتى ولو كانوا من الاسوياء ، علامات واضحة على وجود ميول عندهم الى افراد من جنسهم ذاته . فالصداقة الرومانسية مع صديقة من صديقات المدرسة ، بما يصاحبها من عهود وقبلات ووعود بالتراسل مدى الحياة ، ومن حساسية ملازمة للغيرة ، هي البشير المألوف بأول حب مشبوب عند الفتاة لرجل.وبعد ذلك،وفي ظل ظروف مؤاتية،ينضب معين التيار الجنسي نضوباً تاماً في كثير من الاحيان ؛ أما في الحالات التي لا يحالف فيها الفتاة التوفيق في حبها للرجل، فإن ذلك التيار سرعان ما يعود الى التدفق برفد من الليبيدو، حتى في السنوات اللاحقة من العمر ، وترتفع شدته الى درجات متفاوتة . فإن لاحظنا هذه الواقعة بسهولة ويسر لدى أشخاص اسوياء ، كان من حقنا ان نتوقع ، بالاستناد الى الملاحظات السالفة عن الدرجة العليا من نمو البذور العادية للانحراف لدى المعصوبين ، أن نلقى في جِبلّة هؤلاء المعصوبين استعداداً جنسياً مثلياً أقوى مما لدى سِواهم.ولا بدّ أن يكون كذلك هو واقع الحال،لأنني لم أفلح بعد في تطبيق التحليل النفسي على رجل او على امرأة دون ان يكون علي أن آخذ بعين الاعتبار وجود مثل تلك النزعة الجنسية المثلية في درجة متقدمة من القوة . وحيثما يتعرض الليبيدو الجنسي الموجه نحو الرجل لقمع شديد لدى البنات والنساء الهستيريات ، نجد بصورة مطردة ان الليبيدو الموجه نحو المرأة قد تعرض لديهن بالمقابل لتعضيد وتعزيز ؛ بل ان هذا النزوع قد يكون الى حد ما شعورياً .

سأدع جانباً الآن هذا الموضوع البالغ الاهمية ، الذي يتعذر تفاديه

اذا ما اردنا فهم الهستيريا لدى الانسان ، وذلك لأن علاج دورا توقف قبل ان يلقى الضوء على هذه النقطة فيما يتصل بها . بيد أنني سألفت الانتباه من جديد الى تلك المربية التي عاشت معها دورا في أول الامر في حال من التفاهم الفكري الحميم ، الى ان اتضح لها ان المربية المذكورة ما عاملتها تلك المعاملة الحسنة وما أبدت لها من مظاهر الاعجاب والتقدير ما أبدته إلا بسبب أبيها ، لا بسببها هي . وعندئذ أرغمت المربية على مغادرة المنزل . وقد ألحت دورا أيضاً إلحاحاً خاصاً ، وبتواتر مثير للدهشة ـ معلقة على ذلك أهمية جلى ـ على ان تروي لي قصة خصام آخر بدا لها هي نفسها ملغزاً . فقد كانت دوماً على علاقة تفاهم وود مع صغرى ابنتي عمتها ، وهي التي خطبت فيما بعد ، وقد كاشفتها بأسرار شتى . والحال أنه عندما عاد والد دورا الى بلدة ب لأول مرة بعد قطع إقامته على ضفاف البحيرة ، رفضت بطبيعة الحال ان ترافقه اليها ؛ وعندئذ دعيت ابنة عمتها الى مصاحبته في السفر فقبلت . وشعرت دورا بالفتور نحوها ، وعجبت هي نفسها من اللامبالاة التي صارت عليها عندئذ تجاه ابنة عمتها، بالرغم من انها اعترفت بأنه ليس لديها شيء يعتد به تأخذه عليها .

وقد حملني هذان المثالان من سرعة التأثر والحساسية على مساءلة دورا عما كان عليه موقفها من السيدة ك قبل خلافها معها.وقد علمت عندئذ ان المرأة الصبية ودورا ، التي كانت قد بلغت منذ فترة وجيزة للغاية ، قد عاشتا سنوات عدة في علاقة حميمة للغاية ؛ وحينما أقامت دورا لدى الزوجين ك ، شاطرت السيدة ك غرفتها ؛ أما الزوج فقد أُقصي عنها الى غرفة اخرى . وكانت دوا المؤتمنة على أسرار المرأة الصبية وناصحتها في جميع مصاعب حياتها الزوجية ؛ وما تركتا شيئاً لم تتحدثا فيه . لقد كانت ميديا راضية عن استمالة كرويزا لطفليها[٤٧] ، كذلك فإن السيدة ك ما

٤٧ ـ ميديا : ساحرة اغريقية خرافية ، هربت مع البطل جاسون ، ملك ايلكوس الخرافي ، لكن لما هجرها هذا الاخير انتقمت منه بأن ذبحت ولديه منها . وكرويزا هي ابنة الملك كريون التي احبها جاسون . «م» .

كانت بالتأكيد تأتي شيئاً من شأنه ان يعكر علاقة والد طفليها بالفتاة . وإنه لأمر مثير للاهتمام من وجهة النظر النفسية ان نعرف كيف امكن لدورا ان تقع في حب الرجل الذي كانت صديقتها الأثيرة تحكي عنه بكل ذلك السوء ؛ والحق أن هذه مشكلة لا تعسر على الحل متى فهمنا ان الافكار في اللاشعور تتعايش بسهولة تامة ، وان الاشياء المتناقضة تتجاور بغير ما صدام ، وان هذه الحالة قد تستمر في بعض الاحيان حتى في الشعور .

حين كانت دورا تتكلم عن السيدة ك ، كانت تثني بالمديح على «بشرة جسمها الساحرة البياض» بلهجة أجدر بعاشقة منها بغريمة مهزومة . وقد قالت لي مرة ، بكآبة اكثر منها بمرارة ، إنها مقتنعة بأن الهدايا التي قدمها لها أبوها كانت من اختيار السيدة ك ؛ فقد تعرفت فيها ذوقها . وفي مرة اخرى ايضاً اكدت لي انها تلقت على سبيل الهدية «وبمبادرة من السيدة ك بطبيعة الحال ، حلية تشبه كل الشبه حلية كانت قد رأتها لدى السيدة ك ، فعبرت يومئذ عن رغبتها في الحصول على نظيرها . أجل ، يجب ان أقر بأني لم أسمعها قط تتلفظ بكلمة قاسية أو غاضبة بحق هذه المرأة التي كان من المفروض ، مع ذلك ، انها هي المسؤولة عن تعاستها . لقد كان يبدو عليها وكأنها تتصرف تصرفاً لامنطقياً ، لكن هذا اللامنطق الظاهر كان بالتحديد تعبيراً عن تيار إحساسي بالغ التعقيد . إذ كيف تصرفت هذه الصديقة ، التي كانت دورا تعزها أعظم الإعزاز ، تجاهها؟ فبعد أن أفصحت دورا عن اتهامها للسيد ك، وبعدما طلب أبوها من السيد ك ايضاحاً ، ردّ هذا الاخير اول الامر باعتراضات مبنية على التقدير والاحترام لها ؛ وقد اقترح أن يأتي الى البلدة الصناعية لإزالة كل سوء تفاهم . ولكن بعد ذلك بأسابيع قليلة ، وحينما تحادث الأب واياه في بلدة ب ، تلاشى كل أثر للتقدير والاحترام . فقد قدح بالفتاة وتناولها بالاغتياب والتحقير ، وقامر بكل شيء بقوله إن فتاة تقرأ مثل تلك الكتب وتهتم بمثل تلك الاشياء لا تستطيع أن تتوقع ان يعاملها الرجل بتقدير واحترام . اذن

فقد خانتها السيدة ك ووشت بها وسودت صفحتها ؛ فدورا لم تتكلم عن مانتيغازا وفي المواضيع الشائنة إلا معها ؛ وكانت هذه القصة تكرر بصورة شبه حرفية ما جرى لها مع مربيتها ؛ فالسيدة ك لم تحبها لذاتها ، بل من أجل ابيها . وقد ضحت بها السيدة ك ، بلا وازع من ضمير ، كيلا يتعكر صفو علاقتها بأبيها. ومن المحتمل ان هذه الاهانة جرحت مشاعرها وتسببت في مرضها اكثر من الاهانة الاخرى التي وجهها اليها أبوها حين ضحى بها ، ولعلها اتخذت من الاهانة الاخيرة مجرد ستار لحجب الاولى . أفلم تكن نسايتها العنيدة بخصوص مصدر معلوماتها المحظورة على صلة مباشرة بما كانت توليه من أهمية عاطفية للاتهام الموجه إليها من قبل السيدة ك ، وبالتالي لخيانة هذه الصديقة لها ؟

لا أعتقد أنني أجانب الصواب اذا افترضت ان أفكار دورا المتسلطة ، والحائمة حول علاقة أبيها بالسيدة ك، لم يكن الهدف الوحيد منها كبح حبها للسيد ك ، وهو الحب الذي كان شعورياً فيما مضى ، بل كذلك تمويه حبها لسيدة ك ، وهو الحب الذي كان لا شعورياً بأعمق معاني الكلمة . لقد كانت افكارها المتسلطة معاكسة تماماً لهذا الميل . وكانت دورا تردد بلا انقطاع أن أباها ضحى بها من أجل تلك المرأة ، وكانت تظهر بصخب حسدها لها على امتلاكها لأبيها ، وبذلك كانت تخفي عن نفسها الواقعة المعاكسة ، وهي أنها لا تستطيع إلا أن تحسد أباها على حب السيدة ك له ، وأنها لم تغفر لهذه الاخيرة ، وهي التي أحبتها كل ذلك الحب ، ما سببته لها من خيبة حين هتكت سرها . لقد كان إحساسها بالغيرة النسوية مقترناً ، في لاشعورها ، بغيرة مماثلة لتلك التي يمكن ان تساور الرجل . وهذه المشاعر الذكورية ، أو بتعبير اصح مشاعر «حب النساء» ، ينبغي اعتبارها نمطية في الحياة الحبية اللاشعورية عند الفتيات الهستيريات .

(٢)

الحلم الاول

في الوقت الذي لاح لنا فيه اننا سنتوصل ، بفضل المادة التي زودنا بها التحليل، الى ايضاح نقطة غامضة في طفولة دورا كاشفتني هذه الاخيرة بأنها رأت ، في إحدى الليالي الاخيرة ، حلماً هو مجرد تكرار لأحلام أخرى مشابهة بدقة له كانت قد رأتها من قبل مراراً عدة.وكان حسب هذا الحلم ان يكون من تلك الاحلام التي تتكرر حتى يثور له فضولي . ومن حقنا دوماً ، لصالح العلاج بالذات ، ان نفكر بإدراج الحلم في مجمل سياق التحليل . وعلى هذا فقدت عقدت العزم على سبر أغوار هذا الحلم بعناية خاصة .

الحلم الاول كما روته دورا : «**كان ثمة حريق في منزل**[1] ، **وكان أبي واقفاً امام سريري ، فأيقظني . ارتديت ثيابي على عجل . ارادت أمي ان تنقذ بعد علبة حليها ، ولكن بابا قال : «لا أريد ان نحترق أنا وولداي بسبب علبة حليك» . ونزلنا الدرج مهرولين، وما أن صرت في الخارج حتى استيقظت** » .

بما ان الحلم كان من الاحلام التي تتكرر ، فقد سألت دورا بطبيعة

---

١ ـ قالت دورا فيما بعد رداً على سؤال لي :«لم ينشب قط حريق بحصر المعنى في منزلنا» .

الحال متى رأته أول مرة . فأجابت بأنها لا تدري . لكنها تذكرت أنها رأت هذا الحلم في ل (الموضع الذي وقع فيه المشهد مع السيد ك عند ضفاف البحيرة) ثلاث ليالٍ على التوالي . ثم تكرر بعد ذلك ببضعة أيام هنا[٢](في فيينا - «م») . والرابط الذي استجليته على هذا النحو بين الحلم والحادث الذي جرى في ل زاد بطبيعة الحال من أملي في التوصل الى تفسير الحلم . لكني أردت أولاً ان أعرف السبب المباشر لتكرره مؤخراً ، ودعوت من ثم دورا - وكانت قد تدربت قليلاً على تفسير الاحلام من خلال بعض الأمثلة البسيطة التي سبق لنا تحليلها - الى أن ترده الى عناصره وإلى إخباري بكل ما يرد الى ذهنها بصدد كل عنصر .

قالت :

- ثمة شيء يخطر ببالي ، لكن هذا الشيء حديث عهد للغاية ولا يمكن ان تكون له من صلة إطلاقاً بالحلم الذي حلمت به من قبل بكل تأكيد .

فأجبتها :

- لا عليك ، أخبريني به ؛ فسيكون بالتأكيد آخر شيء يتصل بالحلم .

- حسناً ، لقد تشاجر أبي مع أمي في الايام القليلة الماضية ، لأنها تغلق ليلاً غرفة الطعام . والحال أن غرفة أخي ليس لها مخرج مستقل ولا مدخل اليها إلا عن طريق غرفة الطعام . وأبي لا يحب أن يُحبس اخي على هذا النحو ليلاً . وقد قال : هذا لا يجوز بتاتاً ، فقد يحدث حادث ليلاً ، وان المرء قد يحتاج الى الخروج .

- عندئذ ذهب الفكر بك الى الحريق ؟

- أجل .

- ارجوك ان تتذكري عباراتك ، فقد يكون لنا فيها فائدة . لقد قلتِ للتو : **قد يحدث حادث ليلاً وإن المرء قد يحتاج الى الخروج**[٣] .

---

٢ - يمكننا ان نستخلص من مضمون الحلم انها حلمت به لأول مرة في ل .

٣ - انني اولي هذه الكلمات اهتماماً لأنها أدهشتني . فقد بدت لي ملتبسة المعنى . أفلا تستخدم =

بيد ان دورا اهتدت الآن الى الرابط بين العلة المباشرة الحديثة للحلم وبين العلة الأصلية ، فقد أردفت تقول :

- حين وصلنا ، أبي وأنا ، الى ل يومئذ ، أفصح بصراحة عن خشيته من حريق . فقد كانت تدوي عاصفة رعدية عنيفة ، وقد لاحظنا أن المنزل الخشبي الصغير غير مجهز بواقية صواعق . ومن ثم فقد كانت خشيته في محلها تماماً .

وكنت أحرص على ألا أبحث إلا في الروابط بين الاحداث التي وقعت في ل وبين الاحلام التي تكررت يومئذ ؛ لذا سألتها :

- هل رأيت الحلم في لياليك الاولى في ل أو في لياليك الاخيرة ، قبيل رحيلك عنها ، وبعبارة اخرى : قبل ذلك المشهد في الغابة او بعد ؟

وكنت أعلم ، بالفعل ، ان المشهد لم يحدث من اليوم الاول مباشرة ، وأنها لبثت ، بعد ذلك الحادث ، في ل لبضعة ايام اخرى دون ان تذكر لأحد عنه شيئاً .

وقد أجابتني أول الأمر: « لست أدري » .. ثم أضافت بعد هنيهة : « أعتقد أن ذلك كان بعد المشهد » .

هكذا بت أعلم الآن ان الحلم كان استجابة لذلك الحادث . لكن لماذا تكرر هناك ثلاث مرات ؟ واصلت أسألها : «كم من الزمن بقيت في ل بعد الحادث ؟» .

- اربعة ايام اخرى ؛ وفي الخامس رحلت مع بابا .

- انني متيقن الآن من ان الحلم كان نتيجة مباشرة لحادثتك مع السيد ك . فقد رأيت هذا الحلم للمرة الاولى هنالك ، وليس من قبل . ولم

= الالفاظ نفسها للاشارة الى بعض الحاجات البدنية ؟ ان الكلمات الملتبسة لهي ، في طريق التداعيات ، أشبه بالمحوِّلات في السكة الحديدية . فحسبنا أن نضع المحوِّلة في غير الاتجاه الذي يبدو انها موضوعة عليه في الحلم ، حتى نجد أنفسنا على سكة جديدة تجري عليها الافكار التي نبحث عنها والتي ما تزال خبيئة وراء الحلم .

تضيفي اليه سوى شكوك ذاكرتك حتى تطمسي صلته بما وقع لك[٤] . غير ان الارقام لا تتفق بعد تمام الاتفاق . فلئن بقيت في ل اربع ليالٍ اخرى ، فقد كان من الممكن لك ان تكرري الحلم اربع مرات . لماذا ؟

لم تعترض دورا هذه المرة على ما ذهبت اليه ، ولكنها بدلاً من أن تجيب عن سؤالي مضت تقول[٥] :

ـ في عصر ذلك اليوم ، عقب نزهتنا على شاطىء البحيرة ، وكنت انا والسيد ك قد عدنا ادراجنا عند الظهيرة ، تمددت كعادتي على الاريكة في غرفة النوم لأخلد الى إغفاءة وجيزة . على أني صحوت فجأة لأرى السيد ك واقفاً أمامي .

ـ اذن على نحو ما رأيت في المنام اباك واقفاً امامك ؟

ـ أجل ؛ وقد سألته باحتداد عما جاء يفعل هنا . فأجاب أن لا شيء يمنعه من الدخول الى غرفته متى ما شاء . وفضلاً عن ذلك ، فقد جاء ، كما قال ، ليأخذ منها شيئاً . وإذ أثارت هذه الحادثة ريبتي ، سألت السيدة ك عما اذا لم يكن لغرفة النوم مفتاح ؛ وفي صباح اليوم التالي (اليوم الثاني للمشهد) أقفلت على نفسي الباب لأرتدي ملابسي . ولكن لما اردت في عصر ذلك اليوم أن اقفل الباب على نفسي لاستريح من جديد على الاريكة ، كان المفتاح قد اختفى . واني لعلي ثقة بأن السيد ك هو الذي أخذه .

اذن هـا نحنذا امام موضوعة غلق الغرفة أو عدم إغلاقها التي كانت قد ظهرت في تداعيات الحلم والتي لعبت مصادفة واتفاقاً دورا كعلة مباشرة لتكرار الحلم حديثاً[٦] . ترى ألن تندرج عبارة : **ارتديت ثيابي على**

٤ ـ قارن مع ما تقدم بيانه في الصفحة ٢١ بصدد الشكوك الذاكرية .

٥ ـ كان لا بد بالفعل ان تبزغ مادة ذاكرية جديدة قبل ان تتمكن من الاجابة عن سؤالي .

٦ ـ افترض ، وان لم أذكر ذلك بعد لدورا، أنها ما توقفت عند هذا العنصر إلا لما له من دلالة رمـزية : فـ «الغـرف» ZIMMER كثيـراً مـا تنـوب في الحلم منـاب «النسـاء» «FRAUENZIMMER» ، وانه ليس امراً عديم الاهمية بطبيعة الحال ان تكون المرأة=

عجل ، هـي الاخرى ، في هذا السياق عما قريب ؟

ـ عندئذ عاهدت نفسي على ألا ابقى مقيمة لدى الزوجين ك بدون أبي . وكنت أخشى أن يباغتني السيد ك ، في الأصباح التالية ، وانا أرتدي ملابسي، ولهذا صرت **أرتدي ملابسي على عجل جداً في تلك الأيام**. فبابا كان يقيم في الفندق ، والسيدة ك كانت تخرج في ساعة مبكرة جداً لتذهب وإياه في نزهة . لكن السيد ك لم يعد الى إزعاجي .

ـ إني أفهم ذلك ؛ فعصر اليوم الثاني عقدت العزم على الافلات من تلك الملاحقات ، وقد سنحت لك الفرصة في الليالي الثانية والثالثة والرابعة بعد مشهد الغابة لتكرري بينك وبين نفسك قرارك ذاك في اثناء نومك . فقد كنت تعلمين في عصر اليوم الثاني ، أي قبل الحلم اذن ، ان المفتاح لن يكون في حوزتك صباح اليوم التالي ـ الثالث ـ لتغلقي الباب على نفسك وأنت ترتدين ملابسك ؛ ومن ثم صممت على ان تفعلي ذلك بأعجل ما يمكن . غير ان حلمك تكرر كل ليلة ، لأنه كان يعادل ، على وجه التدقيق ، **قراراً** . والقرار يبقى قائماً الى ان ينفذ . ولكأنك قلت في دخيلة نفسك : «لن أعرف الطمأنينة ولن أذوق طعماً للنوم الهادىء قبل أن اصير خارج هذا المنزل» . وفي الحلم عكست العبارة فقلت : **ما إن صرت في الخارج حتى استيقظت** .

* * *

أقطع هنا سرد التحليل لأقارن هذه النبذة الصغيرة من تفسير الحلم بنظرياتي العامة عن أوالية تكوين الحلم . فقد أوضحت في كتابي[١٧] ان كل حلم يعادل تحقيقاً لرغبة، وأن هذا التمثيل يموه الرغبة متى ما كانت

= «مفتوحة» او «مغلقة» . ومعروف ايضاً ما هو «المفتاح» الذي يقوم بالفتح في مثل هذه الحالة .

٧ ـ **تفسير الاحلام** ، لايبزيغ وفيينا ، الناشر ف . دوتيكه ، ١٩٠٠ .

هذه رغبة مكبوتة ومنتمية الى اللاشعور ، وأن الرغبة اللاشعورية أو الغائصة في اللاشعور هي وحدها القادرة ، باستثناء أحلام الاطفال ، على تكوين حلم . وأعتقد انني كنت سأضمن مزيداً من القبول العام لو كنت اكتفيت بالتوكيد بأن لكل حلم معنى يمكن الكشف عنه بواسطة عمل تأويلي معين ، ولو كنت قلت إنه بوسعنا ، متى ما اكتمل التأويل ، أن نستبدل الأحلام بأفكار قابلة للإدراج في نقطة سهل تعرّفها من الحياة النفسية في حالة اليقظة . وكان بوسعي عندئذ ان اتابع فأقول إن معنى الحلم ذاك يتكشف عـن أنه متنوع تنوع الأفكار في حالة اليقظة ، فتارة يكون رغبة متحققة ، وطـوراً خوفاً متحققاً ، ومرة ثالثة تفكيراً ظل متواصلاً في أثناء النوم ، أو قراراً انعقد العزم عليه (كما في حلم دورا) ، أو ضرباً من الابداع الفكري في أثناء النوم ، الخ . ومن المحقق ان هذه الرؤية للأمور كانت ستكون جذابة بوضوحها ، وكان من الممكن تدعيمها بعدد غفير من الأمثلة الجيدة التأويل، نظير الحلم الذي حللناه هنا .

بيد أنني ، بدلاً من ذلك ، أطلقت توكيداً عاماً يقصر معنى الاحلام على شكل واحد للفكر ، وهو تمثيل الرغبات ، فابتعثت من ثم ميلاً عاماً الى مناقضتي . غير انه لزام علي أن اذكر أني لم أرَ لا من حقي ولا من واجبي ان أبسّط ، استمالة مني للقارىء ، سيرورة سيكولوجية دلتني أبحاثي على أنها على درجة من التعقيد يتعذر معها ، بصفة عامة ، الوصول الى حل لها إلا في حال الانتقال الى ميادين اخرى للبحث . ولهذا السبب فإنه من بالغ الاهمية بالنسبة إلي أن أتمكن من التدليل على ان الاستثناءات الظاهرية ، من قبيل حلم دورا الذي تكشف أول الأمر عن أنه عبارة عن قرار اتخذ في اثناء النهار واستمر في اثناء النوم ، تؤكد من جديد القاعدة المتنازع فيها .

* * *

ما يزال امامنا بعد شطر كبير من الحلم بلا تحليل . لذا مضيت أسأل :

ـ ما لديك لتقوليه عن صندوق الحلي الذي ارادت امك ان تنقذه ؟

ـ ماما تحب الحلي كثيراً ، وقد تلقت كثيراً منها من بابا .

ـ وأنت ؟

ـ في الماضي كنت أنا ايضاً شديدة الولع بالحلي ؛ ولكنني منذ مرضت ما عدت أتزين بها . لقد وقع ، منذ نحو اربع سنوات (قبل الحلم بعام واحد) ، شجار كبير بين بابا وماما حول حلية . كانت أمي تريد حلية بعينها : قرطاً للأذنين من لؤلؤ على شكل نقط . ولكن بابا ما كان يحب هذه الحلية . فجاءها بسوار بدلاً من اللآلىء . فقالت له ، وقد ثار حنقها ، إنه ما دام أنفق كل ذلك المال في شيء لا رغبة لها فيه ، ففي وسعه ان يقدمه هدية الى اخرى .

ـ عندئذ قلت في نفسك في أغلب الظن إنه يسرك كل السرور لو أنك تتلقينها انت ؟

ـ لست أدري[٨] ، وإني لأجهل أصلاً لماذا دخلت ماما في ذلك الحلم ، مع أنها لم تكن آنئذ في ل معنا[٩] .

ـ سأفسر لك ذلك فيما بعد . لكن ألا يرد الى ذهنك شيء آخر بصدد علبة الحلي ؟ انك لم لتكلمـي الى الآن إلا عن الحلي ولم تذكري شيئاً عن العلبة .

ـ أجل ، لقد كان السيد ك أهدى إلي ، قبيل ذلك بوقت قصير ، علبة حلي نفيسة جداً .

ـ اذن لم يكن أمراً في غير محله ان تُرد الهدية بمثلها . ولعلك لا تعرفين ان «علبة الحلي» تعبير شائع في الاشارة الى عين ذلك الشيء الذي ألمحت اليه مؤخراً حينما تكلمت عن حقيبة اليد[١٠] ، أي الاعضاء التناسلية الأنثية .

---

٨ ـ كانت هذه طريقة مألوفة عندها للاعتراف بفكرة مكبوتة .

٩ ـ هذه الملاحظة ، التي تنم عن جهل مطبق بقواعد تفسير الاحلام ، مـع ان دورا كانت تدلل في اوقات اخرى على دراية تامة بها ، وكذلك ترددها وضآلة مردودها من التداعيات بصدد علبة الحلي ، أثبتت لي أن الامر يتعلق بمادة كبتت كبتاً شديداً .

١٠ ـ سيأتي لاحقاً الحديث عن حقيبة اليد .

ـ كنت أعلم انك ستقول ذلك[١١] .

ـ اي أنك ، انت ، كنت تعرفينه . المغزى يغدو الآن اكثر وضوحاً .

لقد قلت في نفسك : «هذا الرجل يلاحقني ، يريد الدخول الى غرفتي ، «علبة حليي» في خطر ، وان وقعت كارثة ما فالغلطة غلطة بابا » . لهذا اخترت للحلم موقفاً يعبر عن العكس : خطر ينقذك منه أبوك . ان كل شيء في هذه المنطقة من الحلم يقلب ، بصفة عامة ، الى نقيضه . وستعرفين عما قليل سبب ذلك . وبالفعل ، إن السر يكمن عند أمك . ما الدور الذي تلعبه أمك في الحلم ؟ هي كما تعلمين غريمتك القديمة في حب والدك . وفي حادثة السوار كان سيطيب لك ان تقبلي ما رفضته امك . والآن ، لنحاول أن نبدل كلمة «قبل» بكلمة «اعطى» ، وكلمة «رفض» بكلمة «ضن» . فيكون المعنى عندئذ انك كنت على أتم استعداد لإعطاء ابيك ما كانت تضن به عليه أمك ، والشيء لا بد ان تكون له صلة ما بالحلي[١٢] . والآن عودي بذاكرتك الى صندوق الحلي الذي أهداه اليك السيد ك . هكذا تجدين نفسك امام بداية لسلسلة من افكار موازية ينبغي ان يوضع فيها السيد ك موضع ابيك ، تماماً كما في موقف الرجل الواقف أمام سريرك . فقد قدم لك السيد ك علبة حلي ، وعليك من ثم ان تقدمي له علبة حليك ؛ لهذا تحدثت لتوي عن رد الهدية بمثلها . وفي هذه السلسلة من الافكار ينبغي احلال السيدة ك محل أمك ؛ ولقد كانت السيدة ك حاضرة عندئذ ، كما تعلمين . وهكذا فأنت على استعداد لأن تعطي السيد ك ما تضن به عليه زوجته . وتلك هي الفكرة التي لم يكن لك من مناص من كبتها بالجهد الجهيد ، والتي حتمت ان تقلب جميع العناصر الى أضدادها . ان الحلم يؤكد من جديد ما كنت قلته لك من قبل ، وهو انك توقظين حبك القديم لأبيك

١١ ـ طريقة مألوفة للغاية لإبعاد بعض المعطيات التي تبزغ من اللاشعور .

١٢ ـ سيكون في مستطاعنا ان نقدم عما قليل تفسيراً (يتطلبه السياق بجملته) للؤلؤة التي على شكل نقطة .

كيما تذودي به عن نفسك ضد حبك للسيد ك ، بل اكثر من ذلك ، فأنت تخشين نفسك ، وتخافين من إغراء الاستسلام له . ومن ثم فإنك تؤكدين بذلك قوة حبك له[١٣] .

لم تشأ بطبيعة الحال القبول بهذا الجزء من التأويل .

لكني أنا استطعت أن أقطع شوطاً آخر في استكمال تفسير الحلم ، وهي خطوة بدت لي ضرورية ولا غنى عنها ، سواء أبالنسبة الى تحليل الحالة أم بالنسبة الى نظرية الحلم . وقد وعدت دورا بأن أطلعها على ما انتهيت اليه في الجلسة القادمة .

وبالفعل ، ما كان بوسعي أن أتغاضى عن التلميح الذي بدا لي متضمناً في تلك العبارة الملتبسة المعنى التي سبقت الاشارة إليها (**إن المرء قد يحتاج ليلاً إلى الخروج**). أضف الى ذلك أن ايضاح الحلم كان يبدو لي بعيداً عن الاكتمال ما دام شرط بعينه لم يتحقق ، وهو شرط لا أتطلب نظيره دواماً ، لكني أسعى ، ايثاراً ، الى التقيد به . فالحلم الاعتيادي يقف ان جاز القول على ساقين ،واحدة يرتكز بها الى الواقعة الاساسية الحديثة ، والاخرى الى حدث مهم من أحداث الطفولة . ويقيم الحلم بين هذين الحدثين ، حدث الطفولة والحدث القريب العهد ، ارتباطاً ، ويسعى الى إعادة تشكيل الحاضر وفق نموذج الماضي . اذن فالرغبة التي تولّد الحلم تنبع من الطفولة دوماً ، ومرامها الدائم ان تبعث هذه الطفولة ، أن تجعل منها حقيقة حاضرة ، ان تصحح الحاضر وفق معيار الطفولة .ولقد

١٣ ـ اضفت ايضاً ما يلي : «لا مناص لي ايضاً من ان استنتج ، من واقعة عودة الحلم الى الظهور في الايام الاخيرة ، انك تعتبرين ان الموقف نفسه قد تكرر من جديد ، وأنك قد عقدت العزم على الانقطاع عن علاج ما حملك أحد عليه سوى أبيك » . وما أتى بعد ذلك أظهر صحة افتراضاتي . وقد مس تأويلي مساً خفيفاً مسألة «التحويل» الفائقة الاهمية ، ان من الناحية العملية وان من الناحية النظرية ، وهي مسألة لن تتاح لي فرصة اخرى للتعمق فيها في هذا المقال .

خيل إلي أنني تعرفت فعلاً في مضمون الحلم الأجزاء التي تشير ، اذا ما ائتلفت معاً ، الى حادث معين في طفولتها .

لقد فتحت باب المناقشة في هذا الموضوع من خلال تجربة صغيرة قيض لها هذه المرة ، كما في العادة ، النجاح . فقد اتفق أن كانت فوق الطاولة ، علبة ثقاب كبيرة . فرجوت دورا ان تنظر لترى إن كان على الطاولة شيء لا يكون في العادة موجوداً عليها . فما أبصرت شيئاً . عندئذ سألتها إن كانت تعرف السبب في ان الاطفال يُحظر عليهم اللعب بالثقاب .

ـ اجل ، بسبب خطر الحريق . وأولاد عمي يحلو لهم ان يلعبوا بالثقاب .

ـ ليس لهذا السبب وحده . فهم يُحذرون «من اللعب بالنار» ، ويُربط بهذا التحذير اعتقاد معين .

لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك . فقلت :

ـ حسناً ، انه الخوف من ان يبللوا فراشهم . وهذا الاعتقاد مبني في ارجح الظن على التضاد بين بين **الماء والنار** . وربما كان الأمر كالتالي : انهم سيحلمون بالنار وسيحاولون اطفاءها عندئذ بالماء . لست مستطيعاً ان أجزم بأن الأمر كذلك حقاً . لكني أرى أن التضاد بين الماء والنار يسدي لك في الحلم خدمات جلى . فأمك تريد أن تنقذ « علبة الحلي » حتى لا تلتهب ؛ أما في أفكار الحلم الكامنة ، بالمقابل ، فالمقصود صون « علبة الحلي » من **التبلل** . غير ان النار ليس استخدامها مقصوراً على كونها مضادة للماء ، بل تفيد ايضاً في التمثيل المباشر للحب ، لكون المرء مغرماً ، ملتهب المشاعر . من « النار » يتفرع اذن مجرى يفضي ، من خلال هذا المعنى الرمزي ، الى افكار الحب ؛ ومن نقيضها ، « الماء » ، يمضي مجرى آخر في اتجاه مغاير ـ بعد أن ينشق عنه فرع يرفد بدور مجرى الحب الذي يؤدي ايضاً الى **التبلل** . لكن في أي اتجاه ؟ استعيدي تعابيرك : قد **يحدث حادث ليلاً** ، وان **المرء قد يحتاج الى الخروج** . ألا يعني هذا

حاجة طبيعية ، وان ربطت هذا الحادث بالطفولة ، فهل يمكن ان يكون شيئاً آخر غير تبليل الطفل لفراشه ؟ ولكن ما الذي يعمد اليه الأهل لمنع الأطفال من تبليل فراشهم ؟ ألا يوقظونهم من النوم ، **تماماً كما يفعل والدك معك في الحلم** ؟ ذلك هو إذن الحادث الواقعي الذي خولك حق إحلال ابيك محل السيد ك الذي كان هو الذي أيقظك في الواقع من نومك . هكذا أراني مضطراً إلى أن أستنتج من ذلك انك عانيت سَلَس البول[١٤] الى سن متأخرة بالقياس الى ما هو مألوف لدى الاطفال . ولا بد ان هذه ايضاً كانت حال اخيك . فقد قال والدك : **لا اريد ان يهلك ولداي** . ان اخاك لا ضلع له على الاطلاق بالموقف الواقعي لدى أسرة ك ، كما انه لم يكن موجوداً في ل . والآن ، ما جواب ذكرياتك عن هذا كله ؟

اجابت :

ـ لست أذكر شيئاً بخصوصي ، لكن أخي كان يبلل فراشه حتى السنة السادسة أو السابعة من عمره ، بل كان ذلك يحدث له احياناً في اثناء النهار .

هممت بأن ألفت انتباهها الى ان المرء يتذكر في مثل هذه الأحوال ما جرى لأخيه بأسهل بكثير مما يتذكر ما جرى له هو نفسه ، لكنها أردفت تقول وقد انبعثت لديها ذكرى محددة :

ـ أجل ، فعلت ذلك انا ايضاً ، ولكن فقط في سنتي السابعة أو الثامنة أو لأجل قصير من الزمن . ولا بد ان الأمر كان على جانب من الخطورة ، لأني أذكر الآن أنه قد جرت استشارة طبيب . وقد دامت هذه الحال الى ما قبيل ظهور الربو العصبي .

ـ ماذا قال الطبيب بصدد هذه الحالة ؟

ـ أرجعها الى ضعف عصبي ؛ وقد قال إنها ستمضي ، ووصف لي

---

١٤ ـ سلس البول : عدم القدرة على امساكه .

« م ٥ »

مقويات[١٥].

هنا بدا لي أن تفسير الحلم قد اكتمل[١٦]. غير ان دورا جاءتني في اليوم التالي بتتمة للحلم . فقد نسيت ان تخبرني أنها كانت تشم في كل مرة ، عند استيقاظها ، رائحة دخان . ومن المؤكد ان الدخان يلتئم مع النار ، لكنه كان يشير ايضاً الى ان للحلم صلة خاصة بشخصي ، لأنه كثيراً ما كان يتفق لي ان أجيب ، حين تزعم الفتاة أن هذا الشيء أو ذاك لا يخفي وراءه شيئاً . بقولي : « لا دخان بلا نار » . غير ان دورا اعترضت على هذا التأويل الشخصي الصرف بقولها ان السيد ك وأباها كان كلاهما من المولعين ، مثلي ، بالتدخين . وكان يطيب لها هي الاخرى ان تدخن عند شاطىء البحيرة ، وقد كان السيد ك لف لها سيجارة قبل ان يشرع من سوء المصادفة بمغازلتها . وقد تراءى لها ايضاً أنهاتذكر بيقين أن رائحة الدخان ظهرت،لا في الحلم الأخير وحده،بل كذلك في الأحلام الثلاثة التي حلمت بها في ل . وبما أنها أبت ان تمدني بأية معلومات أخرى ، فقد وقع على عاتقي انا أن أقرر كيف يمكن إدراج هذه التكملة في نسيج افكار الحلم . وكان ثمة واقعة محددة يمكن ان تكون لي بمثابة نقطة ارتكاز ، وهي ان شم رائحة الدخان جاء كملحق للحلم ، أي أنه كان عليه ان يتغلب على معارضة شديدة من جانب الكبت . ومن ثم فهو يؤلف جزءاً من أفكار الحلم الأكمل انكباتاً والأكثر اتساماً بالغموض في عرضها : أعني الإغراء بألا ترفض للسيد ك طلباً اياً كان . ومن هذا المنطلق فإن شم تلك الرائحة يكاد ألا يعني سوى شيء واحد ، وهو الشهوة الى قبلة تفوح منها

---

١٥ ـ كان ذلك الطبيب هو الوحيد الذي محضته ثقتها ، لأنها تبينت ، من خلال تلك التجربة ، أنه لم ينفذ الى سرها . أما في حضور أي طبيب آخر ما سنحت لها الفرصة بعد للحكم عليه ، فكان يساورها قلق نستطيع أن نتبين الآن دافعه : فقد كانت تخشى ان ينفذ الى سرها .

١٦ ـ لو ترجمنا نواة الحلم، فلربما امكن التعبير عنها كما يلي « إن الإغراء عظيم جداً . فاحمني يا أبي العزيز ، من جديد كما كنت تفعل في طفولتي ، حتى لا يتبلل فراشي ! » .

بالضرورة ، لدى مدخن ، رائحة الدخان ؛ والحال انهما كانا قد تبادلا قبلة قبل ذلك بعامين ، وكان من المحتم ان تتكرر مراراً لو ان الفتاة استسلمت لما كان يريده السيد ك . هكذا يبدو أن أفكار الإغراء قد تلبست شكل المشهد الابكر وايقظت ذكرى القبلة التي كانت دورا ، ماصة إبهامها ، قد دفعت إغواءها عنها في السابق بالتقزز . وإذ جمعت اخيراً جميع الدلائل التي ترجح وجود تحويل باتجاهي ، نظراً الى انني انا ايضاً مدخن ، فقد توصلت الى الافتراض بأنه ساورتها يوماً ، في اثناء إحدى الجلسات ، رغبة في قبلة مني . وكانت هذه مناسبة لها لتكرر حلم التحذير ذاك ولتبرم قرارها بوقف العلاج . وهذا كله يلتئم فيما بينه على أحسن وجه ، لكن من المتعذر تقديم الدليل الدامغ على صحته بالنظر الى خصائص « التحويل » .

إن بوسعي الآن ان أتردد بين طريقين ينفتحان امامي : فإما أن أتصدى أولاً للنتيجة التي يقود اليها هذا الحلم بالنسبة الى تاريخ هذه الحالة ، وإما أن أدحض الاعتراض الموجه الى نظرية الاحلام التي يتمخض عنها هذا الحلم عينه . ولقد اخترت الطريق الأول .

اننا لن نتجشم مشقة لا جدوى منها لو ناقشنا نقاشاً معمقاً سلس البول في سوابق المعصوبين المرضية . وحرصاً على وضوح العرض سأكتفي بالاشارة الى أن سلس دورا لم يكن حالة عادية . فالاضطراب لم يتواصل فحسب إلى ما بعد الزمن الذي يعتبر عادياً وسوياً ، بل إنه ، بعد ان اختفى على حد تصريح دورا الجازم ، عاد الى الظهور في سن متأخرة ، بعد السنة السادسة .

ان هذا السلس ليس له ، فيما أعتقد ، سبب اكثر معقولية من الاستمناء ، وهو الذي يلعب في اتيولوجيا السلس بوجه عام دوراً لم يقدر بعد حق قدره . وقد دلتني الخبرة أن هذا الارتباط غير غائب عن وعي الاطفال انفسهم ، وجميع العواقب النفسية التيتترتب عليه تنزع الى البرهان على أنهم لم ينسوه قط . والحال انه في الزمن الذي روت فيه دورا حلمها ، كان البحث قد وصل بنا الى نقطة كان من الممكن عندها ان ننتزع

من دورا إقراراً بأنها مارست الاستمناء الطفلي . فقد كانت سألتني قبيل ذلك بوقت وجيز لماذا أصابها المرض ، هي بالذات . وقبل ان أتمكن من الاجابة ، ألقت بمسؤولية هذا المرض على أبيها . وقد بنت حجتها لا على افكار لاشعورية ، بل على معرفة شعورية . وقد أدهشني أن أتبين ان الفتاة كانت تعرف ما طبيعة مرض أبيها . فبعد أن رجع هذا الأخير من زيارته الاستشارية لي ، طرق أذنيها حديث ذكر فيه اسم المرض . فقبل ذلك ببضع سنوات ، يوم أصيب الأب بانفصال في الشبكية ، لم يجد طبيب العيون الذي استدعي للاستشارة مفسراً على ما يبدو من تحديد الاسباب النوعية[١٧] للاصابة ، إذ ان الفتاة ، التي كان قد ثار فضولها وقلقها معاً ، سمعت خالة عجوزاً لها تقول لأمها : « انتعرفين انه كان مريضاً قبل زواجه » ، ثم اضافت شيئاً ما فهمته وأوّلته ، فيما بعد ، على أنه يندرج في عداد الاشياء غير اللائقة .

لقد وقع والدها إذن مريضاً بسبب الحياة المتهتكة التي عاشها ، وقد داخلها الاعتقاد بأنه نقل اليها بالوراثة مرضه . وقد حرصتُ على ألا أخبرها بأني أقدِّر أنا أيضاً،كما أسلفت الذكر(انظر ص٢٥،الحاشية)، ان المتحدرين من صلب آباء زهريين يكون عندهم استعداد مسبق قوي للاصابة بأذهنة عصبية خطيرة . اما أفكارها الاخرى التي كانت تنزع من خلالها الى اتهام أبيها فقد احتلت مكانها في سياق مادة لاشعورية . فقد تماهت ،لبضعة ايام ، مع أمها من خلال أعراض طفيفة وسمات غريبة صغيرة ، مما أتاح لها الفرصة لتجذب الانظار اليها بسلوكها الذي لا يطاق ،وكاشفتني عندئذ بأن الفكر يذهب بها الى فترة كانت قد قضتها في فرانزنباد ، وهو مكان أقامت فيه ، لم أعد اذكر في أية سنة ، بصحبة أمها . فقد كانت هذه الاخيرة تشكو من أوجاع في أسفل بطنها ومن

١٧ ـ الزهري كما مر سابقاً . «م».

إفرازات بيض ـ « رشح » ـ مما استدعى علاجاً في فرانزنباد . وكانت دورا ترى ـ وربما كانت على حق هنا ايضاً ـ ان مرجع هذا المرض الى أبيها الذي يكون بذلك قد نقل عدوى إصابته الزهرية الى والدة دورا . وكان من الطبيعي تماماً ان تخلط ، كما يفعل بصورة عامة غالبية الناس من غير الاطباء ، بين السيلان الابيض وبين الزهري ، بين عدوى المعاشرة الجنسية وبين الوراثة ؛ وقد حملني إصرارها على التماهي مع أمها على أن أسألها مكرهاً عما اذا كانت تشكو هي الأخرى من مرض زهري ، وعندئذ علمت انها مصابة بـ« رشح » (تريَّة)[١٨] لا تذكر متى كان مبتداه .

أدركت أن منظومة الأفكار التي تتهم فيها أباها اتهاماً صريحاً تخفي وراءها،كما في العادة،اتهاماً ضد الذات.واستبقت دورا بأن اكدت لها ان الافرازات البيض لدى الفتيات تكشف في المقام الأول في نظري عن الاستمناء ، وقلت إن جميع اسباب التريَّـة التي تعد مسؤولة عن هذه العلة تأتي في المقام الثاني بعد الاستمناء[١٩]. ولفتُّ نظرها الى أنها لما سألتني لماذا أصابها المرض ، هي تحديداً ، كانت على وشك ان تجيب عن سؤالها بإقرارها بأنها مارست استمناء ، طفلياً في ارجح الظن . وانكرت بقوة انها تذكر شيئاً من ذلك . ولكن لم تمض ايام قلائل حتى بدر منها شيء اعتبرته أنا طريقة اخرى في الاقتراب من ذلك الاعتراف . فقد كانت تحمل في ذلك اليوم ، وعلى غير عادتها ، كيس نقود صغير من نوع حديث الموضة . وفيما كانت ممددة على الاريكة ، منصرفة الى الكلام ، كانت ما تفتأ تعبث بذلك الكيس ، فتفتحه ، وتدخل فيه اصبعها ، وتعود الى إغلاقــه ، الخ . وقد راقبتها لهنيهة من الزمن ، ثم شرحت لها بعد ذلك ما كنه الافعال الاعراضية[٢٠]. فأنا أطلق اسم **الافعال الاعراضية** على الافعال التي

١٨ ـ التريَّة او اللوكوريا :سيلان ابيض من المهبل . «م».

١٩ ـ (حاشية اضيفت سنة ١٩٢٣) ـ هذا راي متطرف ما عدت أستطيع ان أتمسك به اليوم .

٢٠ ـ انظر : **علم نفس امراض الحياة اليومية** ، برلين ، الناشر س . كارغر ، ١٩٠٤ .

تبدر عن الناس آلياً ، لاشعورياً ، دون ان ينتبهوا اليها ، وكأنما يعبثون ؛ وان سألناهم عنها مالوا الى انكار كل دلالة لها وادعوا انها غير ذات شأن وبنت المصادفة . غير أن الملاحظة المدققة تكشف عن أن مثل هذه الافعال ، التي لا يعرف الشعور عنها شيئاً أو لا يريد ان يعرف عنها شيئاً ، تعبر عن افكار وحفزات لاشعورية ، وانها بالتالي ، ومن حيث هي تعبير مسموح عن اللاشعور ، ذات قيمة ومغزى . وثمة موقفان شعوريان ميكنان من الافعال اللاشعورية . فإن وجد من تصدر عنه دافعاً بريئاً اليها ، تنبه الى وجودها وصدورها عنه ؛ وبالمقابل إذا عز على الشعور الاهتداء الى تعلة كهذه ، فإن المرء لا ينتبه في العادة الى ادائه لها . وفي حالة دورا كان سهلاً الاهتداء الى تعليل : « لم لا أحمل حقيبية يد دارجة موضتها في الوقت الحاضر ؟ ». غير ان تبريراً كهذا لا يستبعد احتمال وجود أصل لاشعوري للفعل المشار اليه . غير أنه من المستحيل من جهة مقابلة التدليل بصورة قاطعة على هذا الأصل والمغزى المنسوبين اليه. ولا مندوحة لنـا عن الاكتفاء عندئذ بأن نلحظ ونقرر أن مثل هذا المغزى يتفق الى حد يبعث على العجب مع الموقف بجملته ومع ما يشغل حالياً اهتمام اللاشعور .

سأعرض في مناسبة اخرى مجموعة من أشباه هـذه الافعال الاعراضية ، على نحو ما يمكن أن تُشاهد لدى الاسوياء والعصبيين على حد سواء . وقد يكون تأويلها في بعض الاحيان في غاية من السهولة . فحقيبية يد دورا الثنائية التوريق ليست إلا تمثيلاً للمهبل ؛ وبعبثها بها ، وبفتحها ودس إصبعها فيها ، كانت تعبر تعبيراً ايمائياً ،وعلى نحو واضح ولا تحرج فيه ، عما كانت تود لو تفعله ، أي الاستمناء . وقد وقع معي مؤخراً حادث مشابه طريف للغاية . ففي اثناء احدى الجلسات أخرجت سيدة تخطت الشباب علبة سكاكر من عظم العاج ، وكأنما تريد إنعاش نفسها بمص قطعة من السكاكر ، وجاهدت لكي تفتحها ، ثم مدتها إلي لأقتنع بمدى صعوبة فتحها . فأعربت عن ظني بأن هذه العلبة تنطوي ولا

بد على دلالة خاصة ، لأن هذه أول مرة تقع فيها عيني عليها مع أن صاحبتها تتردد على عيادتي منذ اكثر من عام . وعلى الأثر اجابتني تلك السيدة بلهفة : « اني أحمل معي دوماً وفي كل مكان هذه العلبة » . ولم تهدأ إلا بعد ان أوضحت لها ضاحكاً ان عبارتها يمكن ان تنطبق ايضاً على معنى آخر للعلبة . فالعلبة ليست ، ككيس النقود وصندوق الحلي ، الا تمثيلاً لصدفة فينوس ، للعضو التناسلي المؤنث .

تنطوي الحياة على قسط وفير من هذه الرمزية ،نمر به فلا نعيره انتباهاً . ويوم اخذت على عاتقي أن أخرج الى النور ما يخبئه الناس ،دون ان ألجأ الى وسيلة التنويم المغنطيسي القاهرة، ومستعيناً فقط بما يقولونه وما يبدر عنهم ، كنت أتصور هذه المهمة أعسر مما هي عليه في الواقع . فمن له عينان ليرى وأذنان ليسمع يتبين ان بني الانسان لا يستطيعون أن يكتموا سراً . فمن تصمت شفتاه يثرثر بأطراف أنامله ؛ فهو يشي ما بنفسه بكل مسام جسمه . لهذا السبب نرى أن مهمة إخراج أخفى خفايا النفس الى نور الشعور مهمة قابلة تماماً للتحقيق .

ان فعل دورا الأعراضي المتعلق بكيس نقودها لم يسبق الحلم مباشرة . وفي الجلسة التي قصت فيها علي الحلم ، صدر عنها فعل أعراضي آخر كان لها بمثابة استهلال. فحين دلفت الى الحجرة التي كانت تنتظرني فيها، سارعت الى إخفاء رسالة كانت منصرفة الى قراءتها . وسألتها بطبيعة الحال عن مرسل الرسالة ، فأبت أول الأمر ان تخبرني ثم ما لبثت أن أبلغتني شيئاً لا أهمية له على الاطلاق ولا صلة له بالعلاج. فالرسالة كانت من جدتها التي تطالبها بأن تكثر من الكتابة اليها . وأعتقد ان دورا كانت تريد فقط ان تتظاهر بأن لديها « سراً » وان تظهر لي أنني أنتزع منها هذا السر انتزاعاً . وهكذا فهمت الآن سر نفورها من كل طبيب جديد . فهي تخشى ان يتمكن من النفاذ الى علة مرضها (التريَّة في حال فحصها أو سلس البول في حال استنطاقها) ، ومن ثم ان يحدس بممارستها الاستمناء . وكانت تتكلم دوماً بازدراء كبير عن الاطباء بعد ان

تكون في أول الأمر قد أسرفت ولا شك في تقديرهم .

ان اتهاماتها ضد أبيها المسؤول عن مرضها ، تلك الاتهامات التي كـان يختفي تحت ستارهـا اتهامهـا لذاتهـا ، والافرازات البيض، والعبث بحقيبة اليد، وسلس البول بعد السنـة السادسـة، والسر الذي لا تريد ان ينتزعه منها الاطباء ، إن جميع هذه المؤشرات والقرائن كانت في نظري دليلاً لا يدحض على الاستمناء الطفلي . وفي حالة دورا كنت قد بدأت أشتبه بوجود الاستمناء حين حدثتني عن الآلام المعدية عند ابنة عمتها (انظر ص ٤٥) ، ثم حين تماهت معها اذ راحت تتشكى ، لعدة ايام على التوالي ، من نظير تلك الاحاسيس المؤلمة . ومعلوم كم يكثر حدوث الآلام المعدية لدى المستمنين تحديداً . وبحسب ما اخبرني به بصورة شخصية ف . فليس[21] FLIESS ، فإن هذه الآلام المعدية هي عينها التي يمكن ايقافها عن طريق إشراب « النقطة » المعدية في الانف بالكوكايين ـ وهي النقطة التي اكتشفها بنفسه . ويكون الشفاء بكيٍّ هذه النقطة . وقد اكدت لي دورا شعورياً واقعتين اثنتين : أولاهما انها عانت هي نفسها في بعض الفترات من آلام في المعدة ، وثانيتهما أن لديها من الاسباب ما يحملها على الاعتقاد بأن ابنة عمتها كانت تمارس الاستمناء . والحق ان المرضى كثيراً ما يتعرفون عند الآخرين علاقات يتعذر عليهم فهمها لديهم هم انفسهم من جراء مقاوماتهم الوجدانية. وبـالفعل ، مـا عادت دورا تلجأ الى الإنكار ، وان كانت لا تستطيع ان تتذكر شيئاً . وإني لأعتبر ايضاً ان دوام سلس البول عندها « الى ما قبيل ظهور الربو العصبي » امراً ذا دلالة من وجهة النظر السريرية . فالأعراض الهستيرية لا تظهر البتة تقريباً ما دام الاطفال يمارسون الاستمناء ، وانما يكون ظهورها فقط

٢١ ـ فلهلم فليس : طبيب وبيولوجي الماني (١٨٥٨ ـ ١٩٢٨) ، جمعت بينه وبين فرويد صداقة حميمة ، والرسائل التي تبادلاها بلا انقطاع من ١٨٨٧ الى ١٩٠٤ ذات اهمية قصوى لحسن فهم الإنجاز الفرويدي ، وعلى الاخص تحليل فرويد لذاته . «م».

عند الاستنكاف[22] ؛ ومن ثم فهي تنوب مناب الاشباع الاستمنائي ، الذي تبقى الرغبة فيه كاملة غير منقوصة في اللاشعور ، ما لم يحدث إشباع آخر ، أقرب الى السواء ، حيثما يظل مثل هذا الاشباع ممكناً . وهذا الشرط الاخير يحدد امكانية الشفاء من الهستيريا عن طريق الزواج والعلاقات الجنسية السوية . فإن اختفى الاشباع السوي الذي تتيحه الحياة الزوجية ، إما نتيجة للجماع المبتور أو من جراء نفور جنسي ، الخ ، يرتد الليبيدو الى مجراه القديم ويتظاهر من جديد في اعراض هستيرية .

لقد كان بودي لو استطيع أن أسرد هنا بوضوح ودقة تحت تأثير أية ظروف ، وفي أي وقت ، امكن لاستمناء دورا ان يتوقف ؛ غير ان الطابع المنقوص لهذا التحليل يرغمني على الاكتفاء بتقديم مادة كثيرة الفجوات . وقد رأينا ان سلس البول دام عندها الى ما قبيل ظهور الزُلة الأولى . والحال ان كل ما امكن لها ان تخبرني به عن هذه النوبة الاولى هو ان اباها كان ، عند حدوثها ، قد غادر البيت مسافراً لأول مرة بعد إبلاله واسترداده صحته . وهذه النتفة من الذكرى التي امكنها الاحتفاظ بها كانت تنطوي ، ولا بد ، على تلميح الى اتيولوجيا الزلة . وبفضل بعض الافعال الأعراضية وبعض القرائن الأخرى ، تولدت لدي أسباب وجيهة للافتراض بأن الطفلة ، التي كانت غرفة نومها تلاصق غرفة نوم والديها ، قد ضبطت زيارة ليل قام بها أبوها لأمها وسمعت اثناء الجماع تنفس ابيها اللاهث ، وهو الذي كان يشكو من قصر النَفَس في الاوقات العادية . ان الاطفال يرهصون في مثل هذه الأحوال بالطابع الجنسي لهذه الاصوات الباعثة على قلقهم . وعلى هذا فإن الحركات المعبرة عن التهيج الجنسي يكون لها عندهم وجود مسبق ، باعتبارها اواليات فطرية . وقد بينت ، قبل سنوات كثيرة

٢٢ ـ تصدق هذه القاعدة نفسها من حيث المبدأ على الراشدين ؛ غير أنه يكفي لديهم ان يكون الاستنكاف جزئياً ، او أن يقللوا من مرات الاستمناء ، بحيث اذا كان الليبيدو عندهم ذا شدة ، امكن للهستيريا والاستمناء أن يتعايشا معاً .

خلت ، ان الزُلة وخفقان القلب في الهستيريا وعصاب الحصر ما هما إلا نتف منفردة من فعل الجماع ، وقد تسنى لي ، غير العديد من الحالات ، كما في حالة دورا ، ان أرد عرض الزلة والربو العصبي الى العلة المعيَّنة نفسها ، أي الى ضبط الراشدين في اثناء الجماع . ومن المحتمل جداً أن التهيج المناظر الذي تولد لدى دورا الصغيرة قد أحدث تحولاً في مسار الجنسية عندها ، وان ميلها الى الاستمناء قد حل محله منذ ذلك الحين ميل الى الحصر . وبعيد ذلك بوقت وجيز ، وفي اثناء غياب والدها ، وفيما كانت الطفلة المغرمة تفكر به بحنين وشوق ، ساورها من جديد ذلك الاحساس في صورة نوبة ربو.والسبب المباشر الذي احتفظت به ذاكرتها لهذه النوبة يشف لنا عن الافكار المشحونة بالقلق التي صاحبت النوبة . فقد انتابتها تلك النوبة لأول مرة وهي تتسلق جبلاً ، وفي إثر إرهاق ، ومن المرجح انها شعرت فعلاً بشيء من ضيق التنفس . والى هـذا انضافت فكـرة محددة ، وهي ان أباها كان محظوراً عليه تسلق الجبال ، وممنوعاً من إرهاق نفسه نظراً الى قصر نَفَسه ؛ ثم تذكرت بعد ذلك كم أنهك نفسه في تلك الليلة ، عند أمها . وتساءلت بينها وبين نفسها عما اذا لم يكن ذلك قد سبب له أذى وضرراً . وأعقب ذلك قلق من ان تكون هي الاخرى قد ارهقت نفسها في اثناء الاستمناء الذي يؤدي بدوره الى الرعشة الجنسية مع شيء من عسر التنفس. وأخيراً ، كانت عودة عسر التنفس هذا بصورة بالغة الشدة في شكل عرضي . ولقد استطعت ان أستخلص من التحليل جانباً من هذه المعطيات ؛ وكان علي ان أستكمل الباقي بوسائلي الخاصة . والواقع اننا كنا رأينا ، ونحن بصدد الاستمناء ، ان المعطيات المتعلقة بموضوعة واحدة معينة لا يمكن جمعها إلا نتفاً نتفاً ، في اوقات متباينة ، وفي أسيقة مختلفة(٢٣) .

---

٢٣ ـ بطريقة مماثلة تماماً يقوم الدليل ، في حالات اخرى ايضاً ، على الاستمناء الطفلي . وتكون =

ان سلسلة من الاسئلة البالغة الاهمية تنطرح الآن حول اتيولوجيا الهستيريا ، ومنها : هل من المباح لنا ان نعتبر حالة دورا حالة نمطية ، وهل هي النمط الوحيد الممكن للتعيين الاتيولوجي ، الخ . وأعتقد أني أحسن فعلاً ان لم أشأ ان أجيب عن هذه الأسئلة إلا بعد أن أطلع بالطريقة نفسها على عدد جم من الحالات المحلَّلة . هذا الى أنه يتعين علي بادىء ذي بدء أن أسلسل الاسئلة.فبدلاً من أن أفصح عن رأيي بـ«نعم» أو«لا» بصـدد ما اذا كان ينبغي البحث عن اتيولوجيا هذه الحالة في الاستمناء الطفلي ، يحسن بي أولاً ان اناقش تصور الاتيولوجيا في الاعصبة النفسية . وفي حال إجابتي ، فإني سآخذ عندئذ بوجهة نظر مغايرة جداً لوجهة نظر السؤال ، ومن ثم فإن إجابتي لن تأتي من منظور السؤال

= المعطيات بصفة عامة من طبيعة مشابهة : اشارة الى وجود إفرازات بيض ، وسلس بول ، وطقوس خاصة بالايدي (الدافع القهري الى الاغتسال) . الخ . ونستطيع ان نحزر بيقين في كل حالة ، بحسب طبيعة الاعراض ، ما اذا كانت هذه العادة قد اكتشفت أو لم تكتشف من قبل الاشخاص الذين يتولون العناية بالطفلة ، وما اذا كانت الطفلة خاضت صراعاً طويل الأمد ضد هذه العادة أم أن هذه الفترة من النشاط الجنسي قد انتهت لديها من جراء تحول مفاجىء . وفي حالة دورا ، لم يُكتشف الاستمناء من قبل أحد . وقد انتهى دفعة واحدة مباغتة (السر ، الخوف من الاطباء ، الاستبدال بالزُلة) . وتنفي المريضات عادة القوة الإقناعية لهذه المؤشرات ، حتى عندما تحتفظ ذاكرتهن الشعورية بذكرى « رشح » او تأنيبات أمهاتهن (« هذا يسبب البلاهة ، هذا خطر ») . ولكن بعد ذلك بوقت ما تبزغ من جديد على نحو مؤكد ، وفي جميع الحالات ، الذكرى التي طال كبتها عن ذلك الشطر من الحياة الجنسية الطفلية . وفي حالة مريضة تعاني من تصورات وسواسية ، هي مشتقات مباشرة من الاستمناء الطفلي ، اتضح ان الظاهرات الغريبة التي كانت تصدر عنها هي مجرد نتف وشذرات لم يطرأ عليها تغير ـ وقد بقيت محفوظة منذ ذلك الوقت ـ من الكفاح الذي خاضته مربيتها لفطمها عن تلك العادة . فوساوسها كانت من قبيل التحريم الذاتي ، ومعاقبة الذات على ما تأتيه من افعال ، ونهيها ذاتها عن إتيان افعال أخرى ، وحاجتها الى الا يقطع عليها أحد ما تفعله ، وحاجتها أيضاً الى ان تقحم فواصل زمنية بين فعل تأتيه بيدها وبين مماثل تالٍ ، وغسلها المتكرر ليديها ، الخ . وكان الشيء الوحيد الذي بقي محفوظاً على الدوام في ذاكرتها هو التقريع : « حذار ! هذا خطر! » . انظر **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** ، ١٩٠٥ .

مرضية . ومهما يكن من أمر ، فإننا اذا توصلنا في الحالة التي نحن بصددها الى الاقتناع بوجود الاستمناء الطفلي ، فإنه لا يمكن ان يكون عارضاً أو عديم الاهمية في تكوين اللوحة المرضية[٢٤] .

سيكون من الايسر علينا فهم أعراض دورا اذا أولينا دلالة الافرازات البيض التي أقرت بها ما تستوجبه من انتباه . فقد تعلمت ان تسمي مرضها هذا « رشحاً » CATARRHE حين استدعت إصابة أمها بمرض مشابه انتقالها للاقامة في فرانزنباد . وهذه التسمية لعبت مرة اخرى هنا دور « نقطة التحويل » التي أتاحت امكانية التظاهر ، من خلال عرض السعال ، لسلسلة بكاملها من الأفكار ذات الصلة بمسؤولية أبيها عن مرضها . وفضلاً عن ذلك ، كان هذا السعال ، الذي نتج في الأصل ،ولا بد ، عن رشح فعلي بسيط ، محاكاة منها لأبيها المصاب بالتهاب رئوي ، وكان في مقدوره ان يعبر عما تشعر به بلا ريب نحو أبيها من تعاطف وقلق . أضف الى ذلك ان السعال كان وكأنه يعلن على رؤوس الأشهاد حقيقة ربما لم تكن قد صارت شعورية عندها بعد : « انني ابنة أبي . وعندي مثله رشح . وقد أمرضني ، كما أمرض أمي . ومنه أخذت أهوائي الشريرة التي المرض

٢٤ ـ لا بد ان يكون الاخ قد لعب دوراً في تعود دورا على الاستمناء . فقد روت لي بهذا الصدد ، بإلحاح يشي بوجود « ذكرى ستارية » ، ان اخاها كان ينقل اليها على الدوام عدوى أمراضه . لكن بينما كان يعاني هو من إصابات هينة ، كانت هي تقع فريسة اشكال خطيرة من المرض . والاخ هو ايضاً الذي ينجو في الحلم من « التهلكة » . وكان هو الآخر يشكو من سلس البول ، لكن هذا السلس توقف عنده حتى قبل ان يتوقف عند أخته . وبمعنى من المعاني ، كانت « ذكرى ستارية » تختفي وراء قولها بأنها استطاعت ان تسير بخطى واحدة مع أخيها في دروسه ، الى حين مرضها الاول ، وبأنها ما تأخرت عنه الا ابتداء من ذلك التاريخ ، فلكأنها ما كانت الى ذلك الحين الا صبياً ، وبعد ذلك فحسب صارت بنتاً . وبالفعل ، كانت كائناً متوحشاً ؛ وبالمقابل صارت ، منذ اصابها « الربو » ، هادئة وعاقلة . ولقد كان هذا المرض بمثابة حد فاصل لديها بين مرحلتين من حياتها الجنسية : اولاهما ذات طابع ذكري ، وثانيتهما ذات طابع انثي .

عقابها »[٢٥] .

لنحاول الآن أن نربط بين جميع التعيينات التي وجدنا أنها محددة لنوبات السعال والبحة . ففي أعمق الطبقات يتحتم علينا ان نسلِّم بوجود تخرش عضوي فعلي عنه نشأ السعال ، مثله في ذلك مثل حبة الرمل التي حولها يشكل المحار اللؤلؤة. فهذا التخرش قابل للتثبيت ، لأنه يتصل بمنطقة من الجسم حافظت لدى الفتاة ، وبدرجة عالية جداً ، على دور المنطقة الشهوية . كان في مقدور هذا التخرش اذن ان يقدم لليبيدو المستيقظ نمطاً تعبيرياً موائماً . وقد تم تثبيته بواسطة ما يمكن اعتباره الكسوة النفسية الاولى : محاكاتها لأبيها المريض تعاطفاً معه ، ثم اتهاماتها لذاتها بسبب « الرشوحات » . وهذه المجموعة عينها من الاعراض اثبتت فيما بعد قابليتها لتمثيل علاقتها بالسيد ك ، فعن طريقها امكن لها ان تعبر عن أساها لغيابه وعن رغبتها في ان تكون له زوجة خيراً من زوجته . وبعد ما تحول جزء من ليبيدو دورا من جديد نحو أبيها ، اكتسب العرض ما يمكن اعتباره دلالته الاخيرة ، فأمكن لها عن طريقه ان تعبر ، من خلال تماهيها مع السيدة ك ، عن علاقاتها الجنسية بأبيها . وبوسعي ان أؤكد ان هذه السلسلة بعيدة عن الاكتمال . فمن سوء الحظ أن هذا التحليل الذي بقي منقوصاً لا يتيح لنا أن نحدد تواريخ التغيرات في

٢٥ ـ لعب العنصر اللفظي دوراً مماثلاً عند فتاة الاربعة عشر عاماً التي وصفت في اسطر قليلة (ص ٣٠) حالتها . وكنت قد وضعت هذه الفتاة في نزل (بنسيون) بصحبة سيدة ذكية كلفتها بالسهر عليها . وقد ابلغتني هذه السيدة ان المريضة الصغيرة لم تكن تطيق حضورها حينما كانت تضعها في فراشها ، وانها متى ما تمددت عليه انتابها سعال غريب ، وهو شيء ما كان يحدث لها في اثناء النهار . وعند سؤال الفتاة عن هذا العرض ، لم يرد الى ذهنها سوى شيء واحد ، وهو ان جدتها كانت تسعل مثل هذا السعال ، وأنه كان يقال انها مصابة برشح CATARRHE . وعليه ، فقد كان من الواضح انها مصابة هي الاخرى برشح ، ولا تريد ان يباغتها أحد في اثناء اغتسالها قبل النوم . بل ان **الرشح** ، الذي بفضل اسمه هذا **نقل من الاسفل الى الاعلى** ، كان عندها على درجة غير مألوفة من الشدة.

دلالة العرض ، ولا ان نفسر تعاقب مختلف الدلالات وتعايشها . ومن حقنا ان نطلب كل هذه الايضاحات من تحليل مكتمل .

على أنه لا يجوز لي ان أغفل صلات اخرى بين الترية وبين أعراض دورا الهستيريا . فيوم كنا ما نزال بعيدين جداً عن تفسير سيكولوجي للهستيريا ، كان يتفق لي ان أسمع زملاء متقدمين في السن ومن ذوي الخبرة الواسعة يؤكدون ان انتكاس الترية لدى المريضات الهستيريات المعانيات من إفرازات يعقبه بصورة مطردة تفاقم في الأعراض الهستيرية، وعلى الاخص الخلفة[٢٥] والقيء . وما كان أحد منهم يفهم فهماً واضحاً طبيعة هذه العلاقة ، ولكنهم كانوا يميلون ، على ما أتصور ، الى الاخذ برأي أطباء الامراض النسائية الذين يسلمون ، كما هو معلوم ، بوجود تأثير مباشر وعضوي بعيد المدى للاضطرابات التناسلية على الوظائف العصبية ، وإن أعوزهم في غالبية الاحيان البرهان النظري على ذلك . ولا نستطيع ، في الحالة الراهنة لمعارفنا ، ان نستبعد تأثيراً مباشراً كهذا ، لكن من الأسهل ان نقيم البرهان على شكله النفسي . فالمرأة تعتز بأعضائها التناسلية ، والاعتداد بالنفس يلعب هنا دوراً بالغ الأهمية . فإن أصيبت هذه الاعضاء اصابة من شأنها ، في اعتقادها ، أن تثير مشاعر النفور بل القرف ، فإن اعتدادها بنفسها يصاب بدوره بطعنة وتقع فريسة شعور عميق بالمهانة . وعندئذ تصير المرأة سريعة الغضب ، ومفرطة الحساسية ، وشديدة الريبة . فالافرازات غير العادية من الغشاء المخاطي المهبلي تعد باعثة على الاشمئزاز .

لنتذكر الآن ان دورا انتابها ، حينما قبلها السيد ك ، شعور حاد بالقرف ، ولنتذكر ايضاً أنه وجد لدينا من الاسباب ما حملنا على تكميل القصة التي روتها عن هذا المشهد بافتراضنا انها استشعرت ، اثناء عناقه

---

٢٦ ـ الخلفة او الانوركسيا : فقدان شهية الطعام . « م » .

لها ، ضغط القضيب المنتصب على بدنها . واننا لنعلم الآن ، فضلاً عن ذلك ، ان تلك المربية عينها التي طردتها دورا لعدم وفائها لها روت لها انها تعلمت من تجربتها ان الرجال جميعهم فاسقون لا يمكن الوثوق بهم . وكان لا بد ان يعني هذا بالنسبة الى دورا ان الرجال جميعاً مثل أبيها . والحال أنها كانت تعتقد ان اباها مصاب بمرض زهري ، نظراً الى انه نقل عدواه الى أمها واليها هي نفسها . ومن ثم كان من الممكن ان تتصور ان الرجال جميعاً مصابون بمرض زهري ، وكانت الصورة التي تكوّنها لنفسها عن هذا المرض تتعين بطبيعة الحال بتجربتها الشخصية وحدها . ومن هنا كان المرض الزهري يعني عندها ظهور سيلان يبعث على التقزز . أفلا يمكننا ، والحال هذه ، ان نرى في ذلك تعييناً اضافياً آخر للاشمئزاز الذي انتابها لحظة العناق ؟ وهكذا يكون هذا الاشمئزاز ، الذي انزاح الى عناق الرجل بالذات ، اشمئزازاً جرى إسقاطه وفق الاوالية البدائية (المشار اليها في ص ٤٢) ، وهو شعور يرجع في خاتمة المطاف الى الترية التي كانت تعاني منها .

يذهب بي الظن الى أن الأمر هنا أمر افكار لاشعورية ، محبوكة حول علاقات عضوية سابقة الوجود ، وشبيهة باكاليل الزهور التي تحبك حول سلك حديدي ، بحيث يتأتى لنا ان نعثر في حالات اخرى على افكار اخرى محبوكة بين نقاط الابتداء ونقاط الانتهاء عينها . غير ان معرفة ترابط الافكار التي تفعل فعلها في كل حالة فردية أمر عظيم الاهمية في فك لغز الاعراض . ولئن اضطررنا في حالة دورا الى اللجوء الى افتراضات وإضافات ، فذلك مرده الى ايقاف هذا التحليل قبل اكتماله . وما أضفته لأسدّ به الثغرات يستند بغير ما استثناء الى حالات اخرى جرى تحليلها الى النهاية .

* * *

ان الحلم ، الذي أمدنا تحليله بالايضاحات السابقة ، جاء مناظراً ، كما رأينا ، لقرار أبرمته دورا وصاحبها حتى في نومها . ولهذا تكرر الحلم

كل ليلة إلى أن وُضع ذلك القرار موضع التنفيذ ، ثم عاد الى الظهور من جديد بعد مرور بضع سنوات حينما استجد ظرف استدعى اتخاذ قرار مماثل . ومن الممكن التعبير عن هذا القرار شعورياً بالصيغة التالية : « لا بد أن أهرب من هذا المنزل الذي تتعرض فيه بكارتي، كما رأيت، للخطر ، وسوف ارحل مع بابا ، وعند الصباح سوف اتخذ الاحتياطات حتى لا أفاجأ وانا أرتدي ملابسي » . وقد وجدت هذه الافكار في الحلم تعبيراً واضحاً ، وهي تشكل جانباً من تيار صار شعورياً وهيمن على حياة اليقظة . وخلف هذه الافكار نستطيع ان نخمِّن أفكاراً اخرى تنتمي الى تيار معاكس ، وقد أصابها من جراء ذلك قمع . وتدرك هذه الافكار ذروتها في إغراء الاستسلام للسيد ك ، عرفاناً بما أظهر لها في السنوات الاخيرة من حب وحنان ، وربما كانت هذه الافكار تبتعث ذكرى القبلة الوحيدة التي تلقتها منه حتى ذلك الحين . بيد أن مثل هذه العناصر لا تكفي لتكوين حلم ، بمقتضى النظرية التي عرضتها في كتابي عن **تفسير الاحلام** . فالحلم تمثيل لا لقرار وضع موضع التنفيذ ، بل لرغبة متحققة ، وفي المقام الاول رغبة من رغبات الطفولة . ومن واجبنا ان نبحث في ما اذا كانت هذه القاعدة تصدق أو لا تصدق على الحلم الذي نحن بصدده .

ان هذا الحلم يشتمل . بالفعل ، على مادة طفلية ، وان يكن من المتعذر علينا ، للوهلة الاولى ، ان نفهم صلتها بقرار دورا بالهرب من منزل السيد ك ، وبالاغراء الذي كانت تتعرض له من جانب هذا الاخير . فلماذا ظهرت هنا ذكرى السلس ، وذكرى الجهود التي تجشمها والدها ليعوِّدها على النظافة ؟ في مستطاعنا الاجابة عن ذلك : لأنه بفضل هذه الافكار امكن لدورا ان تقمع الإغراء الجارف وأن تغلِّب إرادتها في درء خطره عن نفسها . فالطفلة صممت على **الهرب** مع أبيها ؛ والواقع أنها هربت **نحو** أبيها،لخوفها من الرجل الذي يغويها؛وقد ابتعثت تعلقها الطفلي بأبيها، لأن من شأن هذا التعلق ان يدرأ عنها خطر الانجذاب الحالي نحو رجل غريب . بل ان اباها نفسه مسؤول عن الخطر الحالي لأنه أسلمها الى غريب

حفاظا منه على علاقتـه الغرامية . فكم كانت الحال أجمل وأروع حين كان هذا الأب نفسه لا يحب أحداً سواها ، هي دورا ، ويوم كان يبذل قصاراه ليحميها من الأخطار التي كانت تتهددها آنذاك ! وهذه الرغبة الطفلية التي صارت لاشعورية الآن ، في حلول أبيها محل الرجل الغريب هي القوة التي كونت الحلم . فإن وجد في الماضي موقف يشبه موقفاً من المواقف الراهنة ولا يختلف عنه إلا من حيث الشخص الذي يتمحور حوله ، فإن هذا الموقف الماضي يغدو هو الموقف الرئيسي في مضمون الحلم . والحال ان موقفاً كهذا موجود في حالة دورا : فتماماً كما فعل السيد ك في اليوم السابق للحلم ، كان أبوها قد وقف في الماضي بجوار سريرها وأيقظها في أرجح الظن بقبلته ، ربما مثلما كان السيد ك قد أزمع أن يفعل . والتصميم على الهرب من المنزل ليس قميناً بحد ذاته بتشكيل حلم ، ولا يغدو كذلك الا اذا اقترن بتصميم آخر مستند هذه المرة الى رغبات طفلية . وهكذا فإن رغبة دورا في إحلال أبيها محل السيد ك كانت هي القوة المحركة للحلم . وسأعيد الى الأذهان الآن التأويل الذي ألزمتني به الأفكار المتسلطة لدى دورا بصدد علاقة أبيها بالسيدة ك ؛ وبموجب هذا التأويل كانت دورا قد ابتعثت تعلقها الطفلي بأبيها لتبقي على حبها المكبوت للسيد ك في حال كبت ؛ وهذا التحول في الحياة النفسية للمريضة هو ما عكسه الحلم .

أما فيما يتصل بالعلاقات بين افكار حالة اليقظة التي تتواصل حتى في النوم ـ البقايا النهارية ـ وبين الرغبة اللاشعورية المكوِّنة للحلم ، فقد كنت عرضت بعض الملاحظات في كتابي **تفسير الاحلام** . وبودي أن أوردها هنا بلا تعديل ، ودون أن اضيف اليها شيئاً ، لأن تحليل حلم دورا ذاك جاء ليثبت من جديد صحة الاساس الذي عليه بنيت تلك الملاحظات :

«إنني أسلم بطيبة خاطر بوجود فئـة بكاملها من الاحلام التي تنشأ بصورة رئيسية ، بل حصرية ، عن البقايا المتخلفة من النهار ؛ وأعتقد أنه حتى رغبتي في أن اصير أستاذاً[٢٧] فذاً كان في مقدورها، في تلك الليلة، ان

---

٢٧ ـ لهذا صلة بتحليل حلم اتخذناه في كتابنا نموذجا .

تدعني أنام نوماً هادئاً ، لولم يبق انشغال بالي بصحة صديقي قائماً . لكن ما كان لهذا الإنشغال ان يبتعث حلماً ؛ فالقوة اللازمة لظهور حلم تستوجب توفر رغبة ؛ ومن ثم كان على انشغال البال أن يتدبر لنفسه رغبة لتضطلع بمثل هذا الدور . وان كان لنا ان نلجأ الى تشبيه نقل : إنه من المحتمل جداً ان تلعب فكرة نهارية دور **مقاول** الحلم ؛ لكن المقاول الذي يملك ، كما يقال ، الفكرة والحافز الى تحقيق هذه الفكرة ، لا يستطيع ان يفعل شيئاً بدون رأسمال ومن ثم لا مفر له من اللجوء الى **رأسمالي** لتغطية التكاليف ؛ وهذا الرأسمالي الذي يقدم التمويل النفسي اللازم لإطلاق الحلم هو على الدوام ، وأياً ما كانت الفكرة النهارية ، **رغبة منبثقة من اللاشعور**» .

ان من تسنى له أن يطلع على دقة البنيان في إنشاءات من قبيل الحلم لن يفجأه ان يكتشف ان رغبة دورا في ان ترى أباها محل الرجل المغوي لم تبتعث ذكرى اية مادة نفسية ، كيفما اتفق ، من طفولتها ، بل ابتعثت على وجه التعيين المادة ذات الصلة الاوثق بقمع ذلك الإغواء . وآية ذلك انه اذا كانت دورا قد شعرت بأنها عاجزة عن الاستسلام لحبها لذلك الرجل ، وآذا كانت قد كبتت هذا الحب بدل ان تسلس قيادها له ، فذلك لأن قرارها هذا لا يرتهن بأي عامل مثل ارتهانه بإشباعها الجنسي المبكر وبعواقبه : سلس البول والترية والقرف . ومن الممكن لسوابق مرضية كهذه ، تبعاً لجملة المقومات الجبلِّية لدى الفرد،أن تقدم أساساً لموقفين حيال متطلبات الحب لدى الراشد : إما استسلام بلا تحفظ للجنسية المشارفة على الانحراف ، وإما رد فعل رافض للجنسية ومتواكب بالعصاب . وجبلّة مريضتنا والمستوى الفكري والاخلاقي الرفيع لتربيتها حتما عليها سلوك الطريق الثاني .

وإني أحرص بعد على لفت الانتباه بصورة خاصة الى أن تحليل هذا الحلم قد اتاح لنا منفذاً الى بعض تفاصيل الوقائع التي ولّدت المرض والتي ما كانت ، لولا ذلك ، لتجد طريقها لا الى الذاكرة ولا الى الاستحضار.

فذكرى سلس البول في الطفولة كانت ، كما رأينا ، مكبوتة من قبل . كذلك لم تكن دورا قد ذكرت تفاصيل ملاحقة السيد ك لها ؛ فهي لم ترد قط الى ذهننا .

* * *

سأبدي بعض ملاحظات أخرى تتصل بوحدة تركيب هذا الحلم . فعمل الحلم بدأ في عصر اليوم الثاني الذي تلا المشهد في الغابة ، بعد أن فطنت دورا إلى أنها ما عادت تستطيع ان تقفل الباب على نفسها في غرفتها . ساعتئذ قالت في نفسها : «ان خطراً كبيراً جسيماً يتهددني هنا» . وأبرمت قرارها بألا تبقى بمفردها في ذلك المنزل ، بل بأن ترحل مع أبيها . وقد غدا هذا القرار مقتدراً على تشكيل حلم لأنه استطاع أن يجد في اللاشعور استمراراً له . فقد كان لهذا القرار ما يناظره في اللاشعور ، وهو استنجادها بحبها الطفلي لأبيها حمايةً لها من الاغواء الحالي . والتحول الذي حدث في نفسها عندئذ تثبَّت وقادها الى النظرة التي تمثلها الافكار **المتسلطة** (الغيرة من السيدة ك بسبب أبيها ، كما لو أنها عاشقة له) . ودار في داخلها صراع بين إغراء الاستسلام للرجل الذي يطارحها الغرام وبين المقاومة المعقدة ضده . وقوام هذه المقاومة دوافع تتصل باللياقة والعقل ، ومن مشاعر عدوانية متولدة عن التفسيرات التي أعطتها إياها مربيتها (الغيرة ، عزة النفس الطعينة ، كما سنرى فيما بعد) ، ومن عنصر عصابي ، أعني الاشمئزاز الجنسي الموجود عندها من قبل والنابع من تاريخها الطفلي. وحبها لأبيها، ذلك الحب الذي استنجدت به ليحميها من الغواية ، ينبثق من هذا التاريخ الطفلي تحديداً .

لقد حول الحلم قرار دورا ، الراسخ في لاشعورها ، بالهرب نحو أبيها الى موقف يمثل رغبتها في ان ينقذها أبوها من الخطر وكأنها تحققت . وهنا كان عليها ان تنحي جانباً فكرة كانت تقف امامها كعائق : وهي ان أباها هو

الذي عرضها لهذا الخطر . وسوف نرى فيما بعد ان النزعة المعادية للأب (الرغبة في الانتقام) ، والتي لهذا السبب بالذات كُبحت وكبتت ، ستغدو احدى القوى المحركة للحلم الثاني .

بمقتضى شروط تكوين الاحلام ، يتم اختيار الموقف المتخيل بحيث يأتي تكراراً لموقف طفلي . وإنه لنصر باهر يحققه الحلم حين يفلح في تحويل موقف حديث العهد ، بل ربما الموقف عينه الذي كان الحافز المباشر الى الحلم ، الى موقف طفلي . وقد قيض للحلم في الحالة التي نحن بصددها نجاح مماثل بفضل مصادفة مؤاتية . فكما ان السيد ك كان يقف امامها حين أيقظها ، كذلك كان يفعل والدها في غالب الاحيان وهي طفلة . والتحول المفاجيء الذي ركبت دورا مركبه قابل على نحو رائع لأن يُرمز اليه بإحلالها أباها في هذا الموقف محل السيد ك . والحال أن أباها كان يوقظها في الماضي كيلا تبلل فراشها .

وفكرة « التبليل » هذه تحدد بقية مضمون الحلم ، وان كان التبليل لا يتمثل فيه إلا بتلميح مبهم وبنقيضه .

فنقيض « التبليل » و« الماء » يمكن ان يكون بسهولة « النار » و « الاحتراق » . وقد شاءت المصادفة ان يعرب ابوها ، عند وصولهم الى ذلك المكان ، عن تخوفه من حريق ، وهذه المصادفة ساهمت في ان يكون الخطر الذي يحميها أبوها منه هو بالتحديد خطر حريق . وانما بالاستناد الى هذه المصادفة والى نقيض « التبليل » قام الموقف الذي وقع الاختيار عليه في الحلم : وجود حريق ووجود ابيها الى جانبها ليوقظها . ومن المؤكد أن العبارة التي نطق بها أبوها اتفاقاً وعرضاً ما كانت لتتلبس تلك الأهمية في الصورة الحلمية لو انها ما كانت تتفق ايضاً تمام الاتفاق مع النزعة التي كانت راجحة الكفة عندئذ لدى دورها ، أعني نزعتها الى ان ترى في أبيها ، مهما كلف الأمر ، حاميها ومنقذها . فلكأنها أدارت الفكرة التالية بينها وبين نفسها : « لقد استشعر منذ وصولنا الخطر ، وكان على حق ! » (أما في واقع الأمر فإنه هو الذي عرض الفتاة للخطر) .

وبالاستعانة بترابطات يمكن بيسر ان يعاد بناؤها ، نجد ان فكرة « التبليل » هي التي تضطلع ، بين افكار الحلم ، بدور نقطة التقاطع لعدة دوائر من التمثلات والتصورات . و « التبليل » لا يرتبط فقط بسلس البول ، بل كذلك بدائرة افكار الاغواء الجنسي التي تختبيء ، مكبوحة ، خلف هذا الجانب من مضمون الحلم . فدورا تعلم ان التبلل هو لازمة ايضاً للعلاقات الجنسية ، وان الرجل يعطي المرأة ، في اثناء الجماع ، شيئاً سائلاً **على شكل نقط** . وتعلم أن الخطر يكمن هنا تحديداً ، وأن مهمتها هي أن تدرأ عن أعضائها التناسلية خطر هذا التبليل .

ومن خلال « التبليل » و« النقط » تنفتح امامنا في الوقت نفسه الدائرة الاخرى للتداعيات ، دائرة الرشح المقزز الذي له ، في سن البلوغ ، مفعول إذلالي مماثل لمفعول سلس البول في الطفولة .فـ« التبليل » يعني هنا « التلويث » . والاعضاء التناسلية التي يفترض بها ان تكون نظيفة ، كانت بالفعل قد تلوثت من قبل من جراء التربية، وهذا لدى أمها كما لديها هي نفسها (انظر ص ٨٩) . ويبدو ان دورا فهمت ان هوس النظافة لدى أمها هو رد فعل على هذا التلوث .

ان الدائرتين تتطابقان هنا : فماما تلقت من بابا « البلل » الجنسي والتربية الموسِّخة . وغيرة دورا من أمها لا تقبل انفصالاً عن دائرة الافكار التي تتصل بحبها الطفلي لأبيها الذي يفترض فيه ان يحميها . غير أن هذه المادة لم تكن تصلح بعد للتمثيل . ولكن لو امكن الاهتداء الى ذكرى تكون على صلة متعادلة بكلتا دائرتي فكرة « التبليل » ، ولكنها بعيدة في الوقت نفسه عن ان تكون جارحة للمشاعر ، لكان أمكن لهذه الذكرى ان تضطلع بتمثيل تلك المادة في مضمون الحلم .

ان ذكرى كهذه أتاحتها قصة تلك الحلية من « نقط » اللؤلؤ التي كانت والدة دورا قد أعربت عن رغبتها في الحصول عليها . وارتباط هذه الذكرى بدائرتي الافكار التي تتصل بـ « التبليل » الجنسي والتلوث هو ، في ظاهره ، سطحي وخارجي ، ومرده الى تطابق في الالفاظ ، إذ أن كلمة

« نقطة » استخدمت كـ « نقطة تحويل » ، ككلمة مزدوجة المعنى ، على حين ان كلمة «حلية»يمكن ان تعني «نظيف»[٢٨] اي عكس«ملوث»، وان كان في ذلك شيء من التعسف . أما في الواقع ، فإننا نعثر على ترابطات أساسية ، ووثيقة للغاية . فالذكرى نابعة من مادة الغيرة من الأم ، تلك الغيرة التي وان تكن بدأت في طفولة دورا فإنها استمرت بعد ذلك . وعن طريق هذين الترابطين اللفظيين صارت الدلالة المرتبطة بتصوراتها عن العلاقات الجنسية بين والديها ، وعن التربية التي تعاني منها الأم ، وعن هوس النظافة المضني لدى هذه الاخيرة ، قابلة برمتها لأن تنتقل الى ذكرى واحدة وحيدة هي « نقط اللؤلؤ » .

لكن كان لا بد من نقل آخر كيما يتمخض مضمون الحلم . فليست « النقط » ، وان تكن في الأصل اقرب الى كلمة « التبليل » ، هي التي وجدت منفـذاً لها الى الحلم ، وانما الكلمة الأبعد : « الحلي » . ولو ان هذا العنصر أقحم على الجزء الذي سبق تثبيته من الحلم ، لكان امكن أن نفهم هذا الجزء على النحو التالي : « ارادت امي بعد ان تنقذ حليها » . ولكن بدلاً من « الحلي » تظهر في التعديل الجديد « علبة الحلي » ، وذلك بصورة استطرادية ، تحت تأثير عناصر آتية من دائرة الافكار المضمرة والمتصلة بغواية السيد ك لها . فهذا الاخير لم يقدم لها حلياً ، وانما علبة حلي تجسدت فيها كل علائم الإيثار وكل ضروب الحنان التي اشعرتها بأن عليها الآن ان تكون ممتنة. والحال أن الكلمة المركبة على هذا النحو : « علبة الحلي»[٢٩] ، أليست هي صورة شائعة للدلالة على الاعضاء التناسلية الطاهرة ، غير المسوسة ، لدى المرأة ؟ ومن ثم أليست كلمة بريئة ، وبالتالي كلمة مؤهلة تماماً لأن تخفي ولأن تفضح على السواء الأفكار

---

٢٨ - ان كلمة « حلية » بالالمانية SCHMUCK تعني احياناً « نظيف » . «م» .

٢٩ - تتألف « علبة الحلي » بالالمانية من لفظة واحدة هي SCHMUCKKASFCHEN «م».

الجنسية الكامنة وراء الحلم ؟ .

على هذا النحو وردت في مضمون الحلم ، مرتين على التوالي ، عبارة « علبة حلي ماما » ، وهذا العنصر جاء بديلاً عن تعبير الغيرة الطفلية ، وعن اللؤلؤ الذي بشكل نقط ، أي التبلل الجنسي ، وعن التلوث بالتربية ، كما جاء بديلاً من الجهة الثانية عن الاغراء بمبادلة الحب حباً ، مصوراً سلفاً الموقف الجنسي المتوقع والمرغوب والمرهوب . وعلى هذا فإن عنصر « علبة الحلي » نجم ، اكثر من أي عنصر آخر ، عن عمليات نقل وتكثيف ، وكان بمثابة تسوية بين نزعات متضادة . ومثوله المزدوج في مضمون الحلم يكشف عن تعدد أصوله التي يستمدها من مصدر طفلي ومصدر حالي .

لقد كان الحلم استجابة لخبرة حديثة ومبلبلة كان لا بد ان تبتعث بالضرورة ذكرى الخبرة الوحيدة المشابهة لها في الماضي . ذلك كان مشهد القبلة في المخزن ، تلك القبلة التي أثارت تقززها . والحال ان هذا المشهد نفسه كان يمكن النفاذ اليه بالتداعي من باب آخر بعد : دائرة الافكار المتصلة بالرشح (ص ٩٦) ودائرة الافكار المتصلة بالاغراء الحالي . ومن ثمفإن ذلك المشهد قدم لمضمون الحلم ملابسته الخاصة التي كان عليها ان تتكيف مع الموقف القائم . فهناك حريق ... والقبلة كان لا بد ان تفوح منها رائحة الدخان ؛ ومن ثم شمت دورا رائحة الدخان في الحلم ، وقد لازمها هذا الاحساس حتى الى ما بعد استيقاظها .

لقد تركت لسوء الحظ ، ومن قبيل السهو ، ثغرة في تحليل هذا الحلم . فقد عزت دورا الى أبيها في هذا الحلم العبارة التالية : « لا أريد أن يهلك ولداي ، الخ » (ينبغي ان نضيف هنا ، وعلى ضوء افكار الحلم : من جراء الاستمناء) . ومثل هذا الكلام في الحلم يتألف عادة من شذرات من أقوال سُمعت أو نُطقت فعلاً . وقد غفلت عن الاستعلام عن المصدر الواقعي لهذا القول . ولقد كان من شأن نتيجة هذا التقصي ان تكشف عن قدر اكبر بعد من التعقيد في بنيان الحلم ، ولكن كان من شأنها ايضاً أن تشف عن هذا البنيان بمزيد من الوضوح .

أينبغي ان نفترض ان الحلم حين حدث في ل كان له على وجه الدقة المضمون عينه الذي كان له حين عاد يتكرر في اثناء العلاج ؟ لا يبدو هذا ضرورياً . وتدل الخبرة أن الحالم غالباً ما يؤكد أنه شاهد الحلم عينه ، على حين أن التظاهرات الخصوصية للأحلام المتكررة تتمايز في الواقع عن بعضها بعضاً بتفاصيل عديدة وبتحويرات أخرى غير منعدمة الاهمية . من ذلك أن إحدى مريضاتي روت أنها رأت مرة اخرى في الليلة السابقة حلمها المفضل الذي يتكرر على الدوام بالكيفية عينها : رأت انها تسبح في البحر الازرق ، تشق الامواج جذلى ، الخ . وبعد التدقيق في تقصي هذا الحلم تبين لي ان تفصيلاً أو آخر يضاف في كل مرة الى الخلفية الواحدة ؛ بل إنها رأت نفسها في احدى المرات تسبح في بحر متجمد ، بين جبال الجليد . كما أن أحلاماً أخرى رأتها مريضتي ، ولم تحاول هي نفسها ان تدعي انها مطابقة لذلك الحلم المتكرر ، اتضح انها وثيقة الصلة به . فقد رأت مثلاً ، وهي تنظر الى صورة فوتوغرافية ، الهضبة والسهل في هليوغولاند ، بحجمهما الطبيعي ، ورأت في البحر مركباً على ظهره اثنان من أصدقاء طفولتها ، الخ .

من المؤكد ان الحلم الذي حلمته دورا في اثناء العلاج ـ ربما بدون أن يطرأ تغير على مضمونه الظاهر ـ قد اكتسب دلالة راهنة جديدة . وكان يتضمن ، بين جملة افكاره الكامنة ، تلميحاً الى علاجي ، وكان بمثابة تجديد للقرار الذي اتخذته سابقاً بالافلات من خطر . وان تكن ذاكرة دورا قد خذلتها حين زعمت انها شمت رائحة دخان في ل لحظة استيقاظها ، فلا مفر من الاعتراف بأنها دست ببراعة فائقة عبارتي : « لا دخان بلا نار » في الحلم المكتمل التكون ، وفي موضع بدت معه هذه العبارة وكأنها تسهم في التعيين المتعدد للعنصر الأخير[٣٠]. اما أحدث سبب مباشر للحلم فكان

٣٠ ـ رائحة الدخان . «م» .

مرده بلا جدال الى المصادفة ، إذ أن انحباس اخيها في غرفة نومه بسبب إغلاق أمها باب غرفة الطعام أتاح لها الرابط مع مناورات السيد ك في ل . ففي هذه البلدة أبرمت دورا قرارها لما تبينت انها لا تستطيع ان تغلق باب غرفتها بالمفتاح . ومن الجائز ان أخاها ما كان ظهر بعد في أحلامها التي تكررت هناك ، بحيث ان كلمة « ولداي » ما أقحمت على الحلم إلا بعد الحادث الاخير الذي تكلمنا عنه .

(٣)

الحلم الثاني

بعد بضعة اسابيع من الحلم الأول كان الحلم الثاني الذي توافق جلاء أمره مع نهاية التحليل . وهذا الحلم ليس واضحاً وضوح الأول ، لكنه أمدنا بالتوكيد المبتغى لفرضية أمست ضرورية بصدد الحالة النفسية للمريضة ، وسد ثغرة في ذاكرتها ، واتاح لنا ان نستجلي أصل عرض آخر من أعراضها .

روت دورا : « **كنت اتجول في مدينة لا اعرفها . رايت شوارع وساحات غريبة عليّ[1] . ثم دخلت الى منزل كنت اقطن فيه ، وقصدت غرفتي فوجدت فيها رسالة من ماما . وقد كتبت تقول : بما انني خرجت بغير علم اهلي ، فإنها لم تشا ان تعلمني ان بابا وقع مريضاً . « والآن قد مات ، فإن شئت[2] فبوسعك ان تحضري » . فذهبت الى المحطة وسألت ، ربما مئة مرة ، أين المحطة . فكان الجواب ياتيني في كل مرة : خمس دقائق . وبعد ذلك رأيت امامي غابة كثيفة ، فدلفت اليها ، وسألت رجلاً التقيته فيها . فاجابني : ساعتان ونصف**

---

١ ـ اضافت فيما بعد ملاحظة بالغة الاهمية : في احدى الساحات رايت نصباً .
٢ ـ اكملت لاحقاً بقولها : « كان بعد هذه الكلمة علامة استفهام : شئت ؟ .

أيضاً[3]. وعرض علي ان يرافقني . فرفضت ومضيت بمفردي . رأيت المحطة امامي ، ولم استطع بلوغها . وصاحب ذلك شعور بالقلق مماثل لذاك الذي يعتري المرء في الحلم حين لا يستطيع تقدماً الى الامام . ثم وجدتني في البيت ، ولا بد أنني ركبت في اثناء ذلك عربة ، ولكني لا اعرف شيئاً عن ذلك . ودخلت الى حجرة البواب ، وسألته عن شقتنا . فتحت لي الخادمة الباب واجابتني : أن أبي والآخرين هم الآن في المقبرة »[4].

ما كان من الممكن جلاء كل ما في هذا الحلم نظراً الى وقف التحليل . وقد جرى هذا الوقف في ظروف خاصة لم تكن منعدمة الصلة بمضمون الحلم . لهذا ما امكن لذاكرتي ان تحفظ بدقة متماثلة بصدد جميع النقاط ذكرى جميع الكشوف المتلاحقة . وسأذكر باديء ذي بدء الموضوع الذي كنا بصدد تحليله لحظة طرأ هذا الحلم . فقد كانت دورا نفسها تطرح منذ بعض الوقت أسئلة بصدد العلاقات بين بعض أفعالها وبين دوافعها المفترضة . وكان احد هذه الاسئلة هو التالي : « لماذا لزمت الصمت طيلة الأيام الأولى بعد مشهد البحيرة ؟ » . وكان سؤالها الآخر : « لماذا رويت بعد ذلك ، على نحو مفاجيء ، لأهلي ما حدث ؟ » . وفي رأيي ، كان لا يزال علينا أن نفسر لماذا شعرت دورا أنها انجرحت مثل ذلك الانجراح من مغازلة السيد ك لها ، ولاسيما أنني كنت بدأت أتبين أن الأمر لم يكن بالنسبة الى السيد ك أيضاً يقتصر على مجرد محاولة عابثة للتغرير بها . وقد فسرت مبادرتها الى إعلام والديها بالحادث على أنها فعل يظهر فيه واضحاً تأثير رغبة مرضية في الانتقام . ذلك أني أرى أن الفتاة السوية

٣ ـ حينما روت الحلم مرة اخرى قالت : «ثلاث ساعات » .

٤ ـ اضافت في الجلسة التالية : « رايت نفسي بمنتهى الوضوح أرتقي الدرج » . واضافت كذلك : « بعد جوابها ، ذهبت الى غرفتي ، لكني ما كنت أشعر بأدنى حزن ، وقرأت في كتاب ضخم كان على مكتبي » .

تتولى بمفردها معالجة وقائع من هذا القبيل .

سوف أعرض اذن المادة التي توفرت لي لتحليل ذلك الحلم بالفوضى التي ما امكنني تحاشيها وأنا أهم بسردها هنا .

كانت تتجول بمفردها في مدينة غريبة ، ورأت شوارع وساحات . وقد جزمت ان المدينة لم تكن بكل تأكيد بلدة ب ، كما كنتُ افترضت أول الأمر ، وانما مدينة أخرى لم تضع قدميها فيها من قبل قط . وطبيعي أنني لفتُّ نظرها الى أنه من المحتمل ان تكون قد اقتبست صور هذا الحلم من رسوم أو صور فوتوغرافية وقع نظرها عليها . وانما بعد هذه الملاحظة التي أبديتها خطرت ببالها فكرة النصب القائم في احدى الساحات ، وعلى أثر ذلك مباشرة اهتدت الى أصل هذه الفكرة . فقد كانت تلقت في عيد الميلاد البوماً فيه مناظر لمنتجع مائي ألماني ، وكانت قد أخرجته عشية يوم الحلم لتريه لأقارب لها قدموا لزيارة الأسرة . كان الألبوم قد وضع في علبة لحفظ الصور ، وما استطاعت دورا ان تهتدي حالاً الى مكان العلبة ، فسألت أمها : « أين العلبة ؟ »[5] .وكانت إحدى الصور تمثل ساحة فيها نصب تذكاري . وكان من أهدى اليها هذا الألبوم مهندساً شاباً ، تعرفت اليه بصفة عابرة في البلدة الصناعية التي سبق لنا الكلام عنها . وكان هذا الشاب قد قبل وظيفة في المانيا ليتمكن بأسرع ما يمكن من الاستقلال بنفسه ؛ وكان ينتهز كل فرصة تسنح ليذكر دورا بشخصه ، وكان من السهل ان تدرك انه ينوي ان يطلب يدها للزواج حالما يتحسن مركزه . لكن ذلك كان يتطلب وقتاً ، ولم يكن بد من الانتظار .

لقد كانت الجولة في المدينة الغريبة متعينة بأكثر من سبب . ومنها نستطيع الرجوع الى أحد الاسباب المباشرة للحلم . فقد كان للأسرة

٥ ـ في الحلم سألت : « أين المحطة ؟ » . ومن هذه المقاربة سأستخلص الاستنتاج الذي سأعرضه عما قليل .

نسيب شاب قدم لتمضية الاعياد معها ، وكان على دورا أن ترافقه في جولة لمشاهدة معالم فيينا . صحيح ان هذا السبب المباشر عديم الاهمية بالنسبة الى دورا . لكن هذا النسيب كان يذكرها بإقامتها الأولى والقصيرة في درسدن . فقد طافت يومذاك بدرسدن كغريبة ، ولم يفتها ان تزور رواق اللوحات الشهير فيها . وكان مع الأسرة نسيب آخر وكان يعرف درسدن ، فأراد أن يصحبهم كدليل لهم لمشاهدة ذلك الرواق . **لكن دورا رفضت ، ومضت بمفردها** ، وتوقفت أمام ما كان يعجبها من اللوحات . وأمام **مادونا السكستينا** وقفت ساعتين تتأملها معجبة ، خاشعة ، حالمة . وحين سألتها ما الذي أعجبها الى هذا الحد في تلك اللوحة ، اجابت إجابة مبهمة . ثم قالت في آخر الأمر : « المادونا » .

من المحقق ان هذه التداعيات ترتبط وثيق الارتباط بالمادة التي كونت الحلم . وهي تشتمل على عناصر تكررت بلا تعديل في مضمون الحلم (رفضت دورا ومضت بمفردها ـ ساعتان) . وقد لاحظت للحال ان « الصور » كانت بمثابة نقطة وصل في لحمة افكار الحلم (صور الالبوم ـ اللوحات في درسدن) . وأحبذ أيضاً ان أنوه بصفة خاصة بموضوعة « المادونا » ، الوالدة العذراء ؛ وسنعود لاحقاً الى اقتفاء هذا الأثر . على ان أول ما اتضح لي من هذا الجزء الأول من الحلم ان دورا تماهت مع شاب . فهذا الشاب كان يطوف ببلد غريب ، ويجاهد للوصول الى هدف ، غير ان صعاباً كانت تنتصب في سبيله ، فما كان له إلا أن يتذرع بالصبر .

سالت ربما مئة مرة ... هذا ما يتأدى بنا الى سبب مباشر آخر للحلم ، أقل انعدام اهمية من سابقه . ففي عشية يوم الحلم ، وبعد انصراف الزوار ، سأل الأب دورا أن تأتيه بكونياك قائلاً أنه لا يستطيع النوم بدون أن يحتسي شيئاً من الكونياك . فطلبت مفتاح خزانة الطعام من أمها ، غير ان هذه كانت مستغرقة في حديث ، فما أجابتها ، فما كان من دورا إلا أن صاحت وقد فرغ صبرها : « **هذه هي المرة المئة التي أسألك** فيها أن تخبريني اين المفتاح ! » . وكانت تبالغ ، فهي لم تردد سؤالها إلا

زهاء **خمس مرات**[٦] فقط .

« أين المفتاح ؟ » إن هذا يبدو لي المقابل المذكر للسؤال : « اين العلبة ؟ » (انظر الحلم الأول ،ص٧٥). فهما سؤالان يتعلقان بالاعضاء التناسلية كما نرى .

في اثناء ذلك الاجتماع العائلي نفسه ، شرب أحدهم نخب والد دورا ، معرباً عن أمله في ان تدوم له صحته الجيدة سنوات كثيرة ، الخ . وقد فطنت دورا الى أن قسمات وجه ابيها المتعبة قد عرتها في تلك اللحظة اختلاجة غريبة ، وفهمت ما طبيعة الافكار التي كان عليه ان يكبحها . يا له من رجل مسكين ! من يدري كم بقي له من سنوات العمر ليعيش ؟

ها نحـن نصل الى نص رسالة الحلم . مات أبوها ، وهي قد تغيبت عن البيت بقرار من ذات نفسها . وذكّرتها للحال ، بخصوص رسالة الحلم ، برسالة الوداع التي كتبتها لوالديها ، أو حررتها على الأقل ليطلعا عليها . كانت هذه الرسالة ترمي الى بث الذعر في فؤاد أبيها ، كيما يهجر السيدة ك ، أو على الأقل الى الانتقام منه ان لم تتوصل الى حمله على هجرها . اننا هنا امام موضوعة موتها أو موت أبيها (المقبرة في موضع لاحق من الحلم) . فهل نجانب الصواب إن افترضنا ان الموقف الذي شكل واجهة الحلم جاء مناظراً لتخييل انتقام موجه ضد أبيها؟ إن أفكار الاشفاق التي راودتها عشية يوم الحلم تتمشى مع هذا على أحسن وجه . وهاكم الدلالة التي يمكن ان تكون لهذا التخييل : لقد بارحتْ البيت ، ورحلت الى بلد غريب ، فانفطر قلب أبيها حزناً وصعب عليه العيش بعيداً عنها . وبذلك تكون قد انتقمت . فهي تدرك جيداً ما كان ينقص أباها الذي

---

٦ ـ ورد العدد ٥ في مضمون الحلم من خلال الإشارة الى الوقت : **خمس دقائق** . وكنت في كتابي **تفسير الاحلام** قد بينت بعدة أمثلة الكيفية التي يعامل بها الحلم الارقام المتضمنة في افكار الحلم ؛ فكثيراً ما نلتقيها وقد سلخت عن مجمل السياق الذي كانت تنتمي اليه واقحمت في سياق جديد .

امسى الآن **لا** يستطيع نوماً بغير الكونياك[7] .

لنأخذ اذن في اعتبارنا **الرغبة في الانتقام** كعنصر جديد في مسعانا اللاحق الى إعادة تركيب افكار الحلم الكامنة .

على ان نص الرسالة كان لا بد أن يتيح لنا الكشف عن تعيينات اخرى . فمن أين عساها جاءت اضافة : « ان شئتِ » ؟.

هنا تحديداً خطر ببال دورا ان كلمة « شئت » كانت متبوعة بعلامة استفهام ، ولم تلبث ان فطنت الى ان هاتين الكلمتين مقتبستان من رسالة السيدة ك التي دعتها فيها الى بلدة ل (عند ضفاف البحيرة) . ففي هذه الرسالة جاءت ، بعد عبارة « ان شئت المجيء » ، وفي وسط الجملة تماماً ، علامة استفهام ، وهو ما كان غريباً جداً .

ها نحنذا قد عدنا من جديد الى مشهد البحيرة والى الالغاز المرتبطة به . وقد رجوت دورا ان تروي لي هذا المشهد بحذافيره وتفاصيله كافة . وفي بادىء الأمر لم تعلمني بشيء جديد حقاً . فالسيد ك استهل بادرته بقدر من الجد والوقار؛ ولكنها لم تدعه يكمل ما بدأه.فما أن فهمت مقصده حتى صفعته وابتعدت مهرولة . وقد اردت أن اعرف ما الالفاظ التي تفوه بها ؛ فما تذكرت غير هذا التبرير : « انت تعرفين ان زوجتي لا تعني لي شيئاً »[8] . وكي تتجنب الالتقاء به مرة ثانية ، عقدت العزم ان تلف حول البحيرة سيراً على قدميها وصولاً إلى ل ، وقد سألت رجلاً صادفته كم يقتضيها ذلك من الوقت .ولما اجابها هذا الرجل : « ساعتين ونصف »، عدلت عن خطتها وعادتَ أدراجها الى المركب الذي ما لبث أن أقلع. وكان السيد ك في المركب هو الآخر ، فدنا منها ، ورجاها ان تغفر له وألا تروي

٧ ـ ان الاشباع الجنسي هو بلا شك افضل منوِّم ، مثلما ان الارق نتيجة في اغلب الاحيان لعدم الاشباع. فأبوها ما كان يستطيع النوم لأنه كان يفتقد وصال المرأة التي يحب . قارن مع العبارة التي سنعرض لها لاحقاً : « إن زوجتي لا تعني شيئاً لي » .

٨ ـ ستقدم لنا هذه العبارة مفتاح اللغز .

شيئاً مما حدث . غير انها لم تجبه . قالت : « نعم ، كانت **غابة الحلم** تشبه كل الشبه الغابة التي عند ضفاف البحيرة » والتي جرى فيها المشهد الذي انتهت لتوها من إعادة وصفه.لكنها كانت بالأمس قد رأت الغابة الكثيفة عينها في لوحة في معرض « المدرسة الانفصالية » . وكانت ترى في خلفية اللوحة حوريات[9].

عند هذه النقطة انقلب شكي الى يقين . فأن تستخدم **المحطة**[10] BAHNHOF والمقبرة FRIEDHOFفي الاشارة الى الاعضاء التناسلية الانثية ، فهذا بحد ذاته واضح ومفهوم ، غير ان انتباهي المستيقظ كان يتجه إلى الدهليز VORHOF ، وهي كلمة ذات بنية مركبة مشابهة وتستخدم كمصطلح تشريحي في الاشارة الى منطقة محددة من الأعضاء التناسلية الأنثية . غير أنه كان من المحتمل أن الأمر لا يعدو أن يكون خطأ أوقعني فيه ولعي بالمجانسة الذكية بين الألفاظ . اما الآن ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار « الحوريات » اللائي يظهرن في خلفية « الغابة الكثيفة » ، فلم يعد ثمة مجال للشك . فتلكم هي الجغرافية الجنسية الرمزية ! فكلمة NYMPHAE[11] ، وهي غير معروفة من قبل غير الأطباء ، وغير شائعة الاستعمال كثيراً حتى عند الأطباء ، هي المصطلح الذي يطلق على الشفرين الصغيرين اللذين يقعان في عمق الغابة الكثيفة لشعر العانة . غير أن العارف بمصطلحات تقنية من قبيل NYMPHAE (الشفرين الصغيرين) و VORHOF (الدهليز) لا بد أن يكون استقى معلوماته من الكتب ، لا من الكتب التبسيطية التي « للجميع » ، بل من الكتب

٩ ـ هنا وللمرة الثالثة تطالعنا كلمة « لوحة » (مناظر مدن ، معرض درسدن) لكن في سياق اكثر دلالة.بكثير وبسبب ما تراه العين في هذه اللوحة تغدو هذه اللوحة عينها BILD صورة لامرأة WEIBSBILD (غابة ، حوريات) .

١٠ ـ تفيد « المحطة » بالفعل في الإشارة الى « المعاشرة الجنسية » . وهذا ما يوفر البطانة النفسية للعديد من أرهبة السكة الحديدية .

١١ ـ الحورية باللاتينية . «م».

الاختصاصية في التشريح أو من الموسوعات ، وهي معين مألوف للشباب الذي يتأكلهم حب الإستطلاع الجنسي . فإن صح هذا التأويل ، فلا بد ان الموقف الأول في هذا الحلم يخفي وراءه في هذه الحال تخييل فض بكارة ، تخييل رجل يحاول النفاذ الى الأعضاء التناسلية لدى امرأة[١٢] .

افضيت باستنتاجاتي الى دورا . ولا بد ان الانطباع الذي تركته فيها كان مفجماً ، لأنها تذكرت على حين غرة نبذة منسية من الحلم : **ذهبت بهدوء[١٣] الى غرفتها وقرأت في كتاب ضخم كان على مكتبها** . وقد شددت اللهجة هنا على التفصيلين : « بهدوء » و« ضخم » (بخصوص الكتاب) . سألتها ما اذا الكتاب بحجم الموسوعة ، فأجابت بالايجاب . والحال ان الصغار لا يقرؤون ابداً « بهدوء » في الموسوعة حين يكون بيت القصيد موضوعات محرمة . فهم يقرؤون خائفين ، مرتعدين ، ويتلفتون بقلق خشية ان يفاجئهم أحد . ويمثل الأهل عقبة كبيرة امام مثل هذه المطالعات ، غير أن القدرة التي يتميز بها الحلم علىتحقيق الرغبات أحدثت تغييراً جذرياً في هذا الموقف المضنك : فأبوها قد مات ، والآخرون ذهبوا

---

١٢ ـ ان تخييل فض البكارة هو العنصر المقوِّم الثاني في هذا الموقف . فتشديد اللهجة على صعوبة التقدم ، والقلق الذي ساورها في الحلم ، فيهما تلميح الى البكارة التي توليها الحالمة مكانة الصدارة من اهتمامها ، والتي نجد على اية حال إشارة اخرى اليها من خلال عذراء السكستينا . ان هذه الافكار الجنسية تشكل ضرباً من الخلفية اللاشعورية لرغباتها الدفينة ذات الصلة بخاطب يدها الذي ينتظر في المانيا . وقد كنا راينا ان قوام الجزء الأول من هذا الحلم عينه تخييل انتقام . وهذان الجزآن لا يتطابقان تماماً ، وانما جزئياً فحسب . وسوف نلتقي فيما بعد بتيار افكار ثالث هو اعظم أهمية بعد .

١٣ ـ في مرة اخرى قالت « بدون أدنى حزن » بدلاً من ان تقول « بهدوء » . وإني لأود أن استخدم هذا الحلم دليلاً جديداً على صحة فرضية كنت تقدمت بها في **تفسير الاحلام** (الطبعة السابعة ، ص ٣٨٧) ، ومؤداها ان الاجزاء المنسية من الحلم والتي لا تستعيدها الذاكرة إلا لاحقاً هي على الدوام أهم الاجزاء بالنسبة الى فهم الحلم . وقد خلصت الى الاستنتاج في ذلك الكتاب الى ان نسيان الاحلام يتطلب هو الآخر تفسيراً على أساس المقاومة النفسية الداخلية .

الى المقبرة . ومن ثم يسعها ان تقرأ بهدوء ما طابت لها قراءته . أفلا يعني هذا ان أحد دوافعها الى الانتقام كان تمردها على الإكراه الذي يمارسه والداها عليها ؟ أمـا وقد مات ابوها ، فبوسعها ان تقرأ وتحب كما تهوى .

لم تتمكن دورا في بادىء الأمر من ان تتذكر أنها قرأت قط في موسوعة ، ثم أقرت بعد ذلك بأن ذكرى من هذا القبيل ، وإن بريئة في ظاهرها ، تتردد في واعيتها . فيوم وقعت عمتها الاثيرة لديها فريسة مرض خطير ، وتقرر السفر الى فيينا ، استلمأهلها رسالة من عم آخر كتب اليهم يقول أن ليس في استطاعتهم المجيء الى فيينا ، نظراً الى أن احد اولاده ، أي ابن عم دورا ، أصيب بالتهاب خطير في الزائدة الدودية . ففتحت عندئذ موسوعة لتستعلم عن أعراض التهاب الزائدة الدودية . وما تزال تذكر ما قرأته وصف الألم الذي يصاحب هذا المرض ويكون موضعه في أسفل البطن .

عندئذ تذكرتُ ان دورا اصيبت في فيينا ، بعيد وفاة عمتها تلك ، بالتهاب مزعوم في الزائدة الدودية . وما كنت تجرأت حتىذلك الحين أن أدرج هذا المرض في عداد تظاهراتها الهستيرية . قالت إنها عانت في الأيام الأولى من حمى شديدة ومن وجع في أسفل البطن ، طبقاً لوصف الموسوعة . وقد وضعت لها كمـادات باردة ، لكنها لم تحتملها ؛ وفي اليوم التالي جاءها ، مصحوباً بآلام شديدة ، الطمث الذي اضطربت مواعيده منذ مرضها . وقالت انها عانت في تلك الفترة بصورة دائمة من الإمساك.

لم يكن من الصواب ان أعتبر هذه الحالة هستيرية خالصة . فعلى الرغم من أن الحمى الهستيرية ظاهرة ممكنة الحدوث بكل تأكيد ، فقد كان يتراءى لي انه من الشطط والعسف ان أعزو إليها حمى الحالة المشار اليها بدلاً من أن أرجعها إلى عامل عضوي كان يفعل فعله يومئذ لديها . وكنت أزمع التوقف عن اقتفاء هذا الأثر ، حين ساعدتني هي نفسها على المضي في الدرب نفسه لما تذكرت التفصيل الاضافي الأخير من تفاصيل

الحلم : **رأت نفسها بمنتهى الوضوح ترتقي الدرج** .

طلبت بطبيعة الحال تعييناً خاصاً لهذا التفصيل . فاعترضت علي ، وربما بدون أن تحمل هي نفسها اعتراضها هذا على محمل الجد ، بأنه لم يكن امامها مناص كيما تصعد الى شقتها الواقعة في الطابق الأول من ان ترتقي الدرج ؛ وقد دحضت هذا الاعتراض بيسر وسهولة بأن لفتّ نظرها الى أنه اذا كان في مستطاعها أن تحضر الى فيينا من مدينة مجهولة مع إغفالها ذكر السفر بالقطار ، فبوسعها أيضاً ان تعفي نفسها من ارتقاء الدرج . عندئذ مضت تروي لي أنها عانت ، بعد التهاب زائدتها ، من صعوبة في المشي وأنها بقيت مدة طويلة من الزمن تجر قدمها اليمنى . لهذا كانت تتحاشى بسرور ارتقاء الادراج . اما الاطباء الذين استشارتهم ، بناء على رغبة أبيها ، فقد أبدوا دهشة عظيمة من أن يكون التهاب الزائدة الدودية قد خلف مثل هذا العقبول غير المألوف ، ولا سيما أن الألم في أسفل البطن لم يتكرر ثانية ولم يتواقت البتة مع ظاهرة جر القدم[١٤] .

كان ذلك عرضاً هستيرياً حقيقياً . وحتى لو كانت الحمى عضوية وراجعة ، مثلاً ، الى واحدة من تلك النزلات الوافدة الكثيرة التي لا تصيب موضعاً محدداً من الجسم ، فقد ثبت بوجه اليقين أن العصاب قد استغل المصادفة ليتخذ منها تظاهرة من تظاهراته . هكذا تكون دورا قد اختلقت لنفسها مرضاً قرأت وصفه في الموسوعة ؛ وبذلك تكون قد عاقبت نفسها على تلك القراءة ؛ ولا بد أنها قالت في نفسها فيما بعد ان هذا العقاب لا يمكن ان يكون استهدف قراءة مادة بريئة في الموسوعة ، وانما كان نتيجة عملية

١٤ ـ ينبغي ان نفترض وجود صلة عضوية بين أوجاع اسفل البطن التي يقال لها « التهاب المبيض » وبين صعوبة تحريك الساق التي من الجانب نفسه ، وهي صلة ترتدي لدى دورا دلالة خاصة جداً ، اي انها متعينة بعدة أسباب وتؤدي وظيفة نفسية خاصة . قارن بملاحظاتي المماثلة المتعلقة بتحليل اعراض السعال ، والرابطة كذلك بين الافرازات البيض والخلفة .

نقل بعد ما أتبعت تلك القراءة بقراءة أخرى أدعى الى الشجب ، وان تكن قد اختبأت في الذاكرة ، في الوقت الحاضر ، خلف القراءة البريئة الموازية لها في الزمن[١٥]. وربما توصلنا لاحقاً الى الكشف عن موضوعات هذه القراءة .

ماذا كانت تعني اذن هذه الحالة التي تحاكي التهاب صفاق المصير الأعور PERITYPHLITE ؟ ان العقبول المتمثل في جر الساق لا يتمشى مع التهاب صفاق المصير الأعور ، ولا بد من رده بالأحرى الى الدلالة الخبيئة ، وربما الجنسية ، للوحة السريرية ، وبوسعه من ثم ، إذا ما افلحنا في كشف أصله ، ان يلقي ضوءاً على الدلالة التي نجدّ في البحث عنها . ورحت أفتش عن سبيل يقودني الى فك هذا اللغز . لقد انطوى الحلم على فواصل زمنية ؛ والحال أن الزمن ليس بحال عديم الاهمية في السيرورات البيولوجية . سألتها اذن متى التهبت الزائدة الدودية ، أقبل مشهد البحيرة أم بعده ؟ وجاء الجواب مباشراً يذلل دفعة واحدة الصعاب كلها : **بعده بتسعة أشهر** . ان هذا الفاصل الزمني هو بالتأكيد ذو دلالة . فالتهاب الزائدة المزعوم قد حقق على هذا المنوال تخييل إنجاب بما كان متاحاً للمريضة من وسائل متواضعة تتمثل بالاوجاع والنزف الطمثي[١٦]. وكانت دورا تعرف بطبيعة الحال دلالة ذلك الفاصل الزمني ، وما استطاعت ان تماري في الواقعة المرجحة : أن تكون قد قرأت ، في تلك المناسبة ، مواد الموسوعة التي تتعلق بالحمل والولادة . لكن ما القول في هذه الحال بساقها التي كانت تجرها ؟ لقد بات بوسعي الآن ان أحزر

١٥ ـ هذا مثال نمطي على تكوين الاعراض الناجمة عن احداث لا صلة لها ، في الظاهر ، بالجنسية اطلاقاً .

١٦ ـ سبقت لي الإشارة الى ان معظم الاعراض الهستيرية تعبر ، متى ما بلغت ذروة تطورها ، عن موقف متخيل من الحياة الجنسية : ومن قبيل ذلك مشهد الاتصال الجنسي ، او الحمل ، أو الوضع ، أو فترة النفاس ، الخ .

الأمر . فالمرء يسير هكذا اذا ما التوت قدمه . لقد زلت القدم بها اذن ، وهذا يتمشى تماماً مع قابليتها لإنجاب طفل بعد تسعة أشهر من الحادث عند ضفاف البحيرة . على انه لم يكن لي بد من تطلب شرط آخر . فاقتناعي راسخ بأن أعراضاً كهذه لا سبيل الى ان تنشأ ما لم يتوفر لها من قبل نموذج طفلي . وقد اثبتت لي التجربة أن ذكريات الانطباعات والخبرات المتأخرة زمنياً لا تكون لها بحال من الأحوال القوة اللازمة كيما تتحول الى أعراض . وكنت لا أكاد أجترىء على أن آمل ان تمدني دورا بالمادة الطفلية التي أبحث عنها ، لأنني لا أستطيع بعد ، في الحقيقة ، أن أجزم بأن هذه القاعدة ، التي لا أتردد في الايمان بها بطيبة خاطر ، صحيحة صحة عامة مطلقة . غير أن التوكيد أتاني فوراً في حالة دورا . قالت : نعم ، لقد التوت قدمها نفسها ذات مرة في طفولتها حينما انزلقت وهي تهبط درجاً في بلدة ب ؛ وقد ورمت فيما بعد هذه القدم ـ عينها التي صارت تجرها لاحقاً ـ واستدعى الأمر ربطها وأن تبقى دورا ممددة لبضعة اسابيع . وقد وقع ذلك قبل ظهور الربو بزمن وجيز ، في سنتها الثامنة .

كان علينا عندئذ ان نستخلص النتائج من هذا التخييل الذي أثبتنا وجوده . قلت : « لئن أنجبت طفلاً بعد تسعة أشهر من مشهد البحيرة وتحملت الى اليوم عواقب زلة قدمك ، فهذا يثبت أنك تأسفت لاشعورياً على النهاية التي انتهى بها المشهد[17] . ومن ثم صححتها في فكرك اللاشعوري . ذلك أن التخييل الذي تخيلته عن إنجاب طفل يفترض مسبقاً أنه قد حدث شيء اثناء ذلك ، وانك عشت واختبرت عندئذ كل ما وجدت ضرورة فيما بعد الى ان تنهليه من الموسوعة . هكذا ترين ان حبك للسيد ك لم ينته مع مشهد البحيرة ، وأن هذا الحب ما زال مستمراً الى اليوم ، وان

١٧ ـ هكذا ينكشف لنا ان تخييل فض البكارة مرتبط بالسيد ك ، وهذا ما يفسر لنا لماذا اشتمل هذا الجزء من المضمون الظاهر للحلم على مادة مقتبسة من مشهد البحيرة (الـرفض ، ساعتين ونصف ، الغابة ، الدعوة الى بلدة ل) .

لاشعورياً بالنسبة اليك » . وما كان لها بعد ذلك ان تعود الى المماراة في الأمر[18] .

١٨ ـ سأضيف هنا بضعة تأويلات تكميلية الى تلك التي قدمتها حتى الآن : فـ « المادونا » هي بالبداهة دورا نفسها ، أولاً بسبب « العابد » الذي أرسل اليها صوراً ، وثانياً لأنها حازت على حب السيد ك ، على الاخص بفضل وقوفها موقف الأم حيال طفليه ، وثالثاً واخيراً لأنها وضعت ، وهي العذراء ، طفلاً ، وفي هذا تلميح مباشر الى تخييل الانجاب . وما المادونا أصلاً إلا تصور معاكس محبب الى الفتيات اللائي يعتقدن انهن آثمات جنسياً . وقد اتجه ظني الى هذه الارتباطات لأول مرة حينما كنت طبيباً في عيادة للطب العقلي بالجامعة . فعاينت لدى فتاة حالة تخليط هلوسي حادة سرعان ما تكشفت عن انها رد فعل على تأنيب وجهه اليها خطيبها .

ولو كان تسنى لتحليل دورا أن يستمر لأظهر في أرجح الظن أن التوق الى الامومة كان دافعاً قوياً ، وان غامضاً ، من الدوافع المحددة لسلوكها . فالاسئلة العديدة التي كانت طرحتها في الآونة الاخيرة بدت وكأنها مشتقات آجلة من الاسئلة التي أثارها حب الاستطلاع الجنسي لديها والتي حاولت ان تجد جواباً عنها في الموسوعة . ولا مناص لنا من الافتراض بأن هذه المطالعات كانت تتصل بالحمل والوضع والبكارة وغيرها من الموضوعات المشابهة . وقدنسيت ، في تكرار سردها للحلم ، أحد الاسئلة التي كان ينبغي تضمينها في سياق الموقف الثاني من الحلم . وما كان من الممكن ان يكون إلا السؤال التالي : « السيد فلان ... هل يقطن هنا ؟ » ، أو « أين يقطن السيد فلان » (**ابوها**) . ولا بد أن يكون هناك سبب ما لنسيانها هذا السؤال البريء في ظاهره ، بعد ان كانت ضمنته في الحلم . وقد تبين لي أن السبب يكمن في اسم أسرتها نفسه ، وهو اسم كان يعني في الوقت نفسه أشياء أخرى ، ومن ثم كان في الامكان اعتباره لفظة « ملتبسة » . ولا يسعني لسوء الحظ أن أفصح عن هذا الاسم لأبين مدى البراعة التي استعمل بها للاشارة الى ما هو « ملتبس » و« غير لائق » . ومن الممكن لهذا التفسير أن يجد ما يسنده في تلاعب مماثل بالالفاظ نعثر عليه في جزء آخر من الحلم ، حيث اقتبست المادة من ذكريات دورا عن موت عمتها ، وتحديداً في جملة : « لقد ذهبوا الى المقبرة » ، وحيث حدث تلاعب آخر بالالفاظ كني به عن اسم تلك العمة . ولنا ان نرى في هذه الالفاظ غير اللائقة قرينة على مصدر آخر ، شفوي ، لتلك المعلومات الجنسية ، اذ لم تكن الموسوعة وافية هنا بالغرض . وما كان ليفجأني ان أعلم ان السيدة ك نفسها ، تلك التي وشت بـدورا ، هي ذلك المصدر . فهي التي راعتها دورا بمنتهى المروءة ، بينما صبت على سائر الآخرين نار انتقامها شبه المداجي . وكان من الممكن لنا ان نكتشف خلف هذه السلسلة من عمليات النقل ، التي استنتجناها من التحليل ، عاملاً فاعلاً واحداً بسيطاً : حب دورا الجنسي المثلي العميق للسيدة ك .

لقد استغرقت الجهود لاستجلاء الحلم الثاني ساعتين من الزمن . وحين أعربت في نهاية هذه الجلسة الثانية عن رضاي عن النتائج التي تم إحرازها ، اجابتني بازدراء : « لم يتمخض الأمر عن شيء يذكر » ، وهذا ما بدا لي مؤشراً الى مكاشفات اخرى قريبة .

استهلت الجلسة الثالثة بهذه العبارة : « هل تعرف ، يا دكتور ، أنني آتي هنا اليوم للمرة الأخيرة ؟ » .

ـ لا أستطيع أن أعرف ذلك ما دمت لم تخبريني بشيء بعد .

ـ أجل ، كنت قررت بيني وبين نفسي أن أصبر الى رأس السنة[١٩] ، ولكني لا أريد أن أنتظر اكثر من ذلك لأشفى .

ـ انت تعلمين أنك حرة في ان توقفي العلاج في أي وقت . لكننا اليوم سنتابع عملنا . متى اتخذت قرارك هذا ؟

ـ قبل أسبوعين[٢٠]، على ما أعتقد .

ـ ان هذين الاسبوعين يذكران بالإشعار الذي تعطيه خادم أو مربية قبل رحيلها .

ـ كان لدى آل ك مربية فعلت ذلك ايضاً ، حين ذهبت لزيارتهم عند شاطىء البحيرة .

ـ أحقاً ؟ انت ما كلمتني عن ذلك قط . أرجوك ، قصي علي الأمر .

ـ كان عندهم فتاة تعمل مربية للطفلين ؛ وكانت تتصرف تصرفاً غريباً للغاية حيال السيد ك . فما كانت تحييه ، ولا كانت ترد على أسئلته ، ولا كانت تناوله شيئاً على المائدة اذا ما طلبه ؛ وباختصار ، كانت تعامله وكأنه غير موجود . ولم يكن هو أصلاً اكثر تهذيباً في معاملته اياها . فقبل مشهد البحيرة بيوم أو يومين انتحت بي تلك الفتاة جانباً ، وقالت لي إن لديها ما

---

١٩ ـ كان ذلك يوم ٣١ كانون الأول .

٢٠ ـ في النص الأصلي : « خمسة عشر يوماً » ، ولكننا فضلنا ان نترجم بـ « اسبوعين » مواءمةً للغرض . «م».

تخبرني به . وروت لي ان السيد ك اقترب منها قبل بضعة ايام ، حين كانت السيدة متغيبة لبضعة اسابيع ، وغازلها ، وتوسل اليها ألا تضن عليه بشيء مما يريده منها ؛ وقال لها إن زوجته لا تعني له شيئاً ، وهلم جرا .

ـ غير ان هذه هي عين الكلمات التي نطق بها حين كاشفك بحبه فصفعته .

ـ أجل . لقد استسلمت لتوسلاته ، ولكن لم تمضِ فترة من الزمن حتى توقف عن الاهتمام بها ؛ ومذّاك باتت تكرهه .

ـ وهذه المربية اعطت إشعاراً برحيلها ؟

ـ كلا ، بل كانت تريد ان تفعل ذلك . وقد روت لي أنها لما شعرت بتحوله عنها ، اعترفت بكل ما جرى لوالديها ، وهما انسانان مستقيمان يقطنان في مكان ما من المانيا . وقد طلب اليها والداها ان تغادر ذلك البيت حالاً ، ولما لم تفعل كتبا اليها أن لا شأن لهما بها مذاك فصاعداً وأن عتبة بيتهما محرمة عليها .

ـ ولماذا لم تترك البيت ؟

ـ قالت انها تريد الانتظار فترة اخرى من الوقت لترى ان كان لن يتغير شيء في سلوك السيد ك . فهي ما عادت تطيق الحياة التي تحياها . فإن لم تر من تغير ، فستعطي إشعاراً ثم ترحل في حال سبيلها .

ـ وإلامَ انتهى الأمر بهذه الفتاة ؟

ـ كل ما أعرفه انها رحلت .

ـ ألم تنجب طفلاً من تلك المغامرة ؟

ـ كلا .

هكذا انزاح النقاب في اثناء التحليل ـ وكما تنص القاعدة عن ذلك ـ عن بعض الوقائع التي يمكن استخدامها في حل مشكلات سبقت إثارتها . وعليه فقد قلت لدورا :

ـ أعرف الآن لماذا رددت بصفعة على مكاشفة السيد ك لك بحبه . فلم

يكن ذلك لأن مطارحته لك الغرام قد جرحت مشاعرك ، وانما بدافع الانتقام الغيور . فحين روت لك المربية قصتها ، كنت ما تزالين تتمتعين بكامل مقدرتك على تنحية كل ما لا يتمشى مع مشاعرك تجاه السيد ك جانباً . لكن لحظة نطق السيد ك بعبارته : « ان زوجتي لا تعني لي شيئاً » ـ وهي العبارة عينها التي استعملها مع الفتاة ـ ثارت فيك مشاعر جديدة فجعلت كفة الميزان ترجح . فأنت قلت في نفسك . « أوَ يجترىء على ان يعاملني كمربية ، كخادمة ؟ » . ولم يكن مناص من ان يطفح الكيل اخيراً بعد هذه الطعنة الموجهة الى كبريائك ، فضلاً عن مشاعر الغيرة والدوافع الشعورية المنطقية[٢١]. وكدليل على أنك ما زلت واقعة تحت تأثير قصة المربية تلك ، سأعيد الى ذهنك المرات الكثيرة التي تماهيت معها في الحلم وفي سلوكك . فقد رويت لوالديك ما حدث ، مثلما كتبت الفتاة الى أبويها لتخبرهما بالأمر . وأعطيتني إشعاراً بانقطاعك ، تماماً كما قد تفعل مربية ، بعد أن أبرمت قراراً بذلك قبل أسبوعين . ورسالة الحلم ، التي اتاحت لك ان تعودي الى بيتك ، هي النظير القابل لرسالة والديْ الفتاة التي حرما فيها عليها عتبة بيتهما .

ـ ولكن لماذا لم أخبر ، على أساس هذا الفرض ، والديّ بما حدث فوراً ؟

ـ كم تركت من الوقت يمر ؟

ـ حدث المشهد في ٣٠ حزيران ، وفي ١٤ تموز أخبرت به والدتي .

ـ اذن مرة اخرى اسبوعان ، وهي المهلة المألوفة للإشعار الذي تعطيه مربية قبل رحيلها ! بوسعي الآن ان أجيب عن سؤالك . فأنت بكل تأكيد فهمت جيداً تلك الفتاة المسكينة . فهي ما كانت تريد الرحيل حالاً لأنها

٢١ ـ إنه ليس امراً عديم الاهمية في ارجح الظن ان تكون قد سمعت اباها ينطق بالعبارة نفسها في كلامه عن زوجته. وقد ردد هذه العبارة على مسامعي شخصياً ، ومن المؤكد ان دورا كانت قادرة على فهم مغزاها .

كانت ما تزال تداري الأمل وتتوقع أن يبادلها السيد ك حبها . ولا بد ان هذا ايضاً كان دافعك الى التأجيل . فقد انتظرت ان تنقضي الفترة نفسها لتري ان كان السيد ك سيكرر مطارحته لك ، ولو فعل لكان وسعك أن تستخلصي من ذلك أنه يحمل الأمر على محمل من الجد ، وأنه لا يريد معابثتك كما فعل مع المربية .

ـ لقد بعث الي بعد بضعة ايام من رحيلي ببطاقة بريدية مصورة[٢٢].

ـ أجل ، ولكن بما أنه لم يصلك منه شيء بعد ذلك ، فقد أطلقت العنان لمشاعر انتقامك . بل ربما أضمرت فكرة ما في رأسك : ان تستحثيه باتهامك إياه على موافاتك الى المكان الذي تقيمين فيه .

فأضافت من عندها :

ـ .. كما اقترح في باديء الأمر .

ـ وبذلك تكونين قد أشبعت رغبتك في رؤيته (وهنا أومأت برأسها موافقة ، وهو ما لم اكن أتوقعه) ويكون قد قدم لك الترضية التي كنت تتطلبينها .

ـ اية ترضية ؟

ـ لقد بدأت أعتقد أن نظرتك الى علاقتك بالسيد ك كانت اكثر جدية بكثير مما صورت لي حتى الآن . أفلم يدر كلام كثير بين كل من السيد والسيدة ك عن طلاقهما ؟

ـ بالتأكيد ، في أول الأمر ما كانت لها رغبة فيه ، بسبب الطفلين ، والآن هي التي تريد ، على حين أنه هو ما عاد يريد .

قلت :

ـ ألم يدر في خلدك أنه يريد الطلاق كيما يتزوجك ؟ وأنه عدل عنه الآن لأنه ليس لديه من يحل محلك ؟ صحيح انك كنت صغيرة السن قبل

٢٢ ـ تلكم هي نقطة الوصل مع المهندس المختبيء خلف الأنا في الموقف الحلمي الأول .

عامين ، لكنك أخبرتني بنفسك أن أمك خطبت وهي في السابعة عشرة من العمر ، وانها انتظرت بعد ذلك عامين لتتزوج . وغالباً ما تغدو قصة الأم نموذجاً لقصة الابنة . وعلى هذا فقد أردت انت أيضاً الانتظار وافترضت أنه بدوره ينتظر ان تكبري كيما تصيري امرأة له(٢٣). وإني لأعتقد أن هذه كانت بالنسبة اليك خطة جادة تماماً . وليس لديك حتى الحق في ان تستبعدي وجود مثل هذه النية لدى السيد ك ؛ فقد رويت لي عنه اشياء كثيرة تشير بالفعل الى وجود نية كهذه لديه(٢٤). وحتى سلوكه في ل لا ينقض ذلك . فأنت لم تدعي له الامكانية للإفصاح عن كل ما كان يريد الافصاح عنه ، ثم إنك لا تعرفين ما كان يريد قوله . وعلى أية حال ، ما كانت تلك الخطة مستحيلة التنفيذ الى هذا الحد . فعلاقة أبيك بالسيدة ك ، وهي العلاقة التي عملت مطولاً ، وربما لهذا السبب وحده ، عـلى تشجيعها ، كانت تضمن لك أن توافق السيدة ك على الطلاق ؛ أما فيما يتصل بأبيك ، فأنت تحصلين منه على كل ما تبغين . أجل ، لو أن موقف الإغواء في ل انتهى غير النهاية التي انتهى بها ، لكان فيه الحل الوحيد المقبول بالنسبة الى جميع الأطراف . ولهذا أسفتِ ، على ما أظن ، ذلك الأسف العميق على ما وقع ، وبادرت الى تصحيحه في ذهنك عن طريق تخييل التهاب الزائدة الدودية . ولا بد أنك منيت بخيبة أمل مريرة حينما لم تتمخض اتهاماتك للسيد ك عن تجديد ملاحقته لك بل عن إنكار وافتئات من جانبه . وانت تقرين معي بأن ما من شيء أثار غضبك مثلما أثاره الافتراض بأن مشهد البحيرة كان من تلفيق خيالك . إني أعرف الآن ما لا تريدين أن يذكرك به أحد ، وهو أنك كنت تصورت أن مطارحة السيد ك لك

٢٣ ـ الانتظار الى حين بلوغ الهدف : هذا ما ينطوي عليه المضمون الكامن للموقف الحلمي الأول . وإني لأرى في تخييل انتظار الرجل لخطيبته هذا جزءاً من العنصر المقوِّم الثالث للحلم ، على نحو ما سبقت لنا الاشارة اليه .

٢٤ ـ وعلى الاخص بعض العبارات التي خاطبها بها في العام الاخير من إقامتهما المشتركة في ب ، وهي العبارات التي اشفع بها هدية أهداها اليها في عيد الميلاد : علبة رسائل .

كانت جادة ، وأنه ما كان ليمل أو يكل عن السعي الى أن تتزوجيه .

أصغت إلي دون أن تناقضني ، وبدا عليها التأثر والانفعال ، وودعتني بمنتهى الود ، متمنية لي أحر التهاني بمناسبة رأس السنة ، و... لم تعد مرة أخرى . اما أبوها ، الذي قدم لرؤيتي عدة مرات بعد ذلك ، فقد اكد لي انها ستعود ؛ وزعم أن رغبتها في مواصلة العلاج بادية للعيان ولكنه لم يكن في أرجح الظن صادقاً كل الصدق يوماً . فما دام يعتقد أنني سأتمكن من إثناء دورا عن الاشتباه بأن علاقته بالسيدة ك تتجاوز حد الصداقة ، كان يساند العلاج . غير أن حماسته خبت لما تبين أن ليست هذه نيتي . وكنت أعلم أن الفتاة لن تعود ثانية أبداً . فقد كان عملاً انتقامياً لا لبس فيه من جانب دورا أن توقف العلاج على ذلك النحو المباغت ، في اللحظة عينها التي تعاظم فيها الى أقصى حد أملي في إحراز نتيجة ناجحة . وفضلاً عن ذلك ، كان ميلها إلى إنزال الأذى بنفسها قد وجد في طريقة تصرفها هذه ما يلبيه . ومن يوقظ ، مثلما أفعل ، من أعماق النفس البشرية أدهى الشياطين التي لم تروض ترويضاً كاملاً ، سعياً الى مصارعتها ، لا بد له أن يكون مستعداً لتحمل نصيبه مما سيلحقه من أذى في هذا الصراع . ترى هل كنت سأتمكن من استبقاء الفتاة لو لعبت أنا نفسي دوراً تجاهها ، ولو غاليت في أهمية ما يعنيه لي حضورها ، ولو أظهرت لها اهتماماً شخصياً اكبر ، وهو ما كان من شأنه ، ولو خفف من أثره كوني طبيباً ، أن ينوب قليلاً مناب المحبة التي كانت بأحرِّ التوق اليها ؟ لست أدري . وبما ان جانباً من العوامل التي تعترضنا في صورة مقاومة يبقى ، في جميع الحالات ، مجهولاً منا ، فقد تحاشيت على الدوام أن ألعب أدواراً . وقنعت بنصيب سيكولوجي اكثر تواضعاً . وعلى الرغم من كل الاهتمامات النظرية ، وعلى الرغم من لهفة كل طبيب الى ان يكون في مستطاعه مد يد العون ، فإني أقول بيني وبين نفسي إن ثمة حدوداً لكل تأثير نفسي ، علاوة على أني احترم ارادة المريض ووجهة نظره .

ترى هل كان السيد ك سيؤوب بحصة اكبر من تلك التي آب بها لو أننا

كشفنا له ان الصفعة لم تكن تعني على الاطلاق « لا » جازمة ونهائية من جانب دورا ، ولو أنه علم ان هذه الصفعة كانت تعبيراً عن الغيرة التي نبعثت حديثاً في قلب الفتاة ، وأن انفعالات نفسية مضطربة كانت لا تزال تعتمل في داخلها لصالحه ؟ فلو أنه كان تغاضى عن رد فعلها ، ولو انه كان واصل مغازلتهابعاطفة مشبوبة قادرة على انتزاع اقتناعها ، فلربما كان الحب تغلب على جميع الصعاب والعوائق الداخلية . لكني أعتقد انه كان بوسعها أيضاً أن تلبي نداء انتقامها بقدر اكبر من العنف بعد . ولا نستطيع ابداً أن نرهص فـي أي اتجاه سيتجه القرار في حالة نشوب صراع بين الدوافع : أفي اتجاه رفع الكبت أم في اتجاه تعزيزه . ان العجز عن تلبية المتطلبات **الواقعية** للحب هو سمة من السمات المميزة للعصاب ؛ فالعصابيون يرزحون تحت وطأة التعارض القائم بين الواقع وتخييلات لاشعورهم . وما يصبون إليه بأحر التوق في أحلام يقظتهم يهربون منه مع ذلك حالما يتيحه لهم الواقع ، ولا يطيب لهم الاستسلام لتخييلاتهم كما يطيب حينما لا يخشون من احتمال تحققها . ومع ذلك ، يمكن للحاجز الذي ينصبه الكبت أن ينهار تحت ضغط انفعالات عنيفة يستثيرها الواقع ؛ فالعصاب قابل بعد لأن يهزمه الواقع . لكننا لا نستطيع بصفة عامة أن نتنبأ لدى من ، وبأية وسيلة ، يمكن الحصول على مثل هذا الشفاء(٢٥) .

٢٥ ـ سأضيف بضع ملاحظات اخرى حول بنية ذلك الحلم الذي لم يتم لنا استجلاؤه بدرجة كافية لنحاول تركيب وحدته. فثمة جزء فيه أشبه بواجهة متقدمة بارزة ، وهو تخييل الانتقام من الأب : فقد تركت دورا البيت بدون رجوع الى احد غيرها ، وكان ابوها مريضاً ثم مات .. ولما رجعت الى البيت كان الجميع في المقبرة . وصعدت الـى غرفتها وهي لا تشعر بأدنى حزن وقرات بهدوء في موسوعة . وهنا تأتي إشـارتـان الى فعل الانتقام الذي نفذته في الواقع فعلاً حيث رتبت الأمر بحيث يقع والداها على رسالـة الوداع :الـرسالـة (وهي في الحلم رسالـة امهـا) ، وذكر جنـازة العمـة التي كانت نمـوذجهـا المقتـدى . وخلف هـذا التخييـل تختفي افكـارهـا = الانتـقامية ضد السيد ك ،تلك الافكار التي حققتها في الواقع في سلوكها معي والخادمة ،والدعوة ج والغـابة ،و« الساعاتان ونصف » ، مقتبسة كلها من احداث وقعت فعلاً في ل . وذكرى المربية وذكرى تراسل هذه المربية مع والديها تنصهران مع العنصر الذي تمثله رسالتها الوداعية لتؤلف جميعها الرسالة التي وردت في المضمون الظاهر للحلم والتي اتاحت لها ان تعود الى البيت. أما رفضها لرافقة الرجل لها وقرارها بأن تمضي بمفردها فيمكن تأويلهما كما يلي : « لأنك عاملتني كخادمة ، فإنني أتركك واواصل طريقي بمفردي ، ولا أتزوج » . وخلف هذه الافكار الانتقامية نستشف عناصر من تخييلات حانية نابعة من حب دورا للسيد ك ، وهو الحب الذي صانته في لاشعورها : « كنت سأنتظرك الى أن يصير في الامكان ان أكون زوجة لك »ـ فض البكارة ـ إنجاب طفل . اما المجموعة الرابعة من الأفكار فهي الأعمق انطماراً : حب دورا للسيدة ك ، تخييل فض البكارة من وجهة نظر رجل (تماهيها مع عابدها الذي يعيش في الخارج) ، وكذلك الاشارة الواضحة ، في موضعين ، الى كلمات مزدوجة المعنى (السيد فلان ... هل يقطن هنا ؟)، والاشارة اخيراً الى المصادر غير الشفوية لمعارفها الجنسية (الموسوعة) . وثمة نزعات الى القسوة والسادية تجد متصرفاً لها في هذا الحلم .

(٤)

خـــاتمـــة

كنت أعلنت ان هذا العرض لن يكون إلانبذة من تحليل ؛ ولكن ربما وجده القارىء أبعد عن الاكتمال بكثير مما كان يمكن له ان يتوقع بناء على هذا العنوان . ومن ثم لا مناص لي من أن أوضح أسباب هذه الثغرات والفجوات التي ما هي بحال بنت المصادفة .

ان عدداً من نتائج هذا التحليل قد أغفل ، إما لأن هذه النتائج لم تكن قد دُرست دراسة كافية لحظة ايقاف العلاج ، وإما لأنها كانت تتطلب ، كيما يمكن فهمها ، ان تُطور بحيث تتمخض عن نظرة إجمالية عامة . وفي مواضع أخرى ، وحيثما بدا لي ذلك مباحاً ، أشرت الى الاتجاهات التي كان يمكن ان تفضي الى حلول معينة . وقد أغفلت إغفالاً تاماً التقنية التحليلية ، التي يتعذر فهمها من الوهلة الاولى ، والتي بفضلها نتوصل الى ان نستخلص من المادة الخام لتداعيات المرضى المضمون الصافي لأفكار لاشعورية ثمينة . ومن شأن هذا الإغفال أن يحرم قارىء هذا العرض من امكانية التحقق بنفسه من صحة نهجي . غير أنني وجدت أن ثمة استحالة عملية تحول دون أن أعرض في آن معاً تقنية التحليل والبنية الداخلية لحالة هستيريا ؛ وهذه مهمة يستحيل على أصلاً تنفيذها ؛ ولو فعلت لجاء النص بكل تأكيد مما لا تطاق قراءته . ان التقنية تقتضي عرضاً على حدة ، ممثّلاً

عليه بعدد غفير من الحالات الشديدة التباين ، دون ان تكون هناك حاجة الى بيان النتيجة التي امكن الوصول اليها في كل حالة . كذلك لم احاول البرهنة على صحة المقدمات السكولوجية التي يكشف عنها وصفي للظاهرات النفسية . فعرضها عرضاً سطحياً ما كان ليجدي فتيلاً ، وعرضها عرضاً مفصلاً كان سيستغرق مجلداً بكامله . لكن باستطاعتي أن اؤكد انني عكفت ، دون أن انضوي تحت لواء أي مذهب سيكولوجي ، على دراسة الظاهرات التي جلتها لي ملاحظة الاعصبة النفسية ، وأنني عدلت في تصوراتي إلى ان بدت لي قادرة على استيعاب مجمل الملاحظات وتعليلها . ولا أدعي أنني تحاشيت كل فرض نظري ؛ غير أنني جمعت مادة فروضي من الملاحظات الأوسع نطاقاً والأكثر استئداء للجهد. ولعل صلابة وجهات نظري في مسألة اللاشعور ستصدم القارىء اكثر من سواها ، لأنني أتناول الافكار والتمثلات والانفعالات اللاشعورية على أنها مواضيع سيكولوجية لا تقل صدقاً ويقيناً عن سائر الظاهرات الشعورية ؛ لكنني على ثقة من أن أي شخص يتصدى لدراسة الظاهرات نفسها بالمنهج عينه لن يجد مندوحة عن الاخذ بوجهة نظر مطابقة لوجهة نظري ، بالرغم من كل اعتراضات الفلاسفة .

اما اولئك من زملائي الذين اعتبروا نظريتي في الهستيريا سيكولوجية خالصة ، وبالتالي غير مؤهلة قبْلياً لحل مشكلة باتولوجية ، فربما كان في وسعهم ان يتبينوا من هذا النص أنهم حينما وجهوا إلي ذلك المأخذ حولوا دون حق سمة من سمات التقنية الى النظرية . فالتقنية العلاجية هي وحدها سيكولوجية خالصة ؛ أما النظرية فلا تغفل إطلاقاً الاشارة الى الاساس العضوي للأعصبة ، وان لم تبحث عنه في تغييرات باتولوجية - تشريحية ، علاوة على أنها تستعيض مؤقتاً عن التغيرات الكيمياوية - وهي بكل تأكيد محتملة ولكن من المتعذر في الوقت الراهن الإمساك بها - بتغيرات الوظيفة العضوية . ولن يكون في مستطاع أحد ان ينكر على

الوظيفة الجنسية ، التي أرى فيها علة الهستيريا ، بل علة الاعصبة النفسية بوجه عام ، خاصيتها كعامل عضوي . ولن يكون في مستطاع اية نظرية في الجنسية ، على ما أفترض ، أن تعفي نفسها من التسليم بالتأثير التهييجي لمواد جنسية محددة . فالتسممات والظاهرات الناشئة لدى المدمنين عن الامتناع عن تناول بعض السموم هي التي تشبه اكثر الشبه ، بين جميع اللوحات السريرية التي تمدنا بها الملاحظة في الطب السريري ، الأعصبة النفسية الحقيقية .

كذلك لم أعرض في هذا النص كل ما يمكن قوله اليوم بخصوص « المسايرة البدنية » ، والبذور الطفلية للانحرافات ، والمناطق الشهوية ، والاستعداد المسبق للثنائيةالجنسية . وقد اقتصرت على الاشارة الى النقاط التي يصطدم عندها التحليل بتلك الاسس العضوية للاعراض . وما كان لي ان افعل اكثر من ذلك في عرضي لحالة خاصة، ثم انه كانت لدي الأسباب عينها التي تقدمت الاشارة إليها للامتناع عن تقديم عرض سطحي لهذه العوامل . فهنا تتوفر مادة لأبحاث أخرى ، تستند الى تحليل حالات كثيرة .

لقد كان نصب عيني هدفان من وراء نشري هذا النص غير الكامل : أولاً ان اكمل كتابي **تفسير الاحلام** ببياني الكيفية التي يمكن بها استعمال هذا الفن - غير المستخدم في العادة - للكشف عن الاجزاء الخبيئة والمكبوتة من النفس البشرية ، ومن ثم تقيدت ، في تحليلي لحلمي دورا ، بتقنية تفسير الأحلام التي تشبه تقنية التحليل النفسي ؛ وثانياً ، أردت أن أوقظ الاهتمام ببعض الظاهرات التي لا يزال العلم الى اليوم يجهلها جهلاً مطبقاً ، إذ لا سبيل الى كشفها إلا بتطبيق هذا المنهج على وجه التحديد . فما كان في مستطاع أحد ، قبل هذا المنهج ، ان يصل الى تصور صحيح عن تعقيد الظاهرات النفسية في الهستيريا ، وعن تزامن أشد النزعات والميول تبايناً ، وعن الارتباط المتبادل بين الاضداد وسيرورات الكبت

والنقل ، الخ. وما تأكيد جانيه[1] على أهمية **الفكرة الثابتة** ، التي تتحول في رأيه الى عرض ، إلا تخطيط أولي فقير وهزيل حقاً . ولن يكون امامنا مفر من الافتراض بأن التنبيهات المصحوبة بتمثلات غير قابلة لأن تصير شعورية تؤثر في بعضها بعضاً على نحو مغاير ، وتسلك مساراً مبايناً ، وتتمخض عن أنماط تعبيرية مخالفة ، بالقياس الى التنبيهات التي نسميها « سوية » والتي يصبح مضمونها التمثلي شعورياً عندنا . فإن قر ذلك في أذهاننا ، فلن يعود صعباً علينا ان نفهم طريقة في العلاج تشفي الاعراض العصابية عن طريق تحويل تمثلات من النوع الأول الى تمثلات سوية .

لقد حرصت ايضاً على أن أوضح ان الجنسية لا تتدخل بصورة منفردة ، وبطريقة سحرية[2]، في مجمل الظاهرات المميزة للهستيريا ، بل إنها القوة المحركة لكل عرض من الاعراض ولكل تظاهرة من تظاهرات العرض . فالتظاهرات المرضية هي ؛ ان جاز القول ، **النشاط الجنسي للمرض** . وليس لحالة واحدة ان تثبت نظرية عامة الى هذا الحد ، ولكن لا يسعني إلا أن أعيد القول تكراراً – لأني لا أجد الأمر ابداً على غير هذا النحو – بأن الجنسية هي مفتاح مشكلة الاعصبة النفسية ، وكذلك الاعصبة بصفة عامة . ومن يرفض هذا المفتاح فلن يقيض له أبداً ان يحل هذه المشكلة . وانا ما زلت بانتظار أبحاث يكون من شأنها ان تنقض هذا القانون أو ان تحد من مداه . وجميع الانتقادات التي سمعت بأنها وجهت إليه حتى الآن كانت تعبيراً عن استياء أو ارتياب شخصي ؛ وحسبي في مثل

---

١ – بيير جانيه : طبيب نفسي وعصبي فرنسي (١٨٥٩ – ١٩٤٧) ، مدير مختبر علم النفس الباتولوجي في مستشفى سالبتريير ، واستاذ علم النفس التجريبي والمقارن في كوليج دي فرانس . أعطى دفعاً قوياً لعلم النفس التجريبي ومن اشهر مؤلفاته **الآلية السيكولوجية** (١٨٨٩)، **من القلق الى الوجد** (١٩٢٧). « م ».

٢ – باللاتينية في النص : DEUS EX MACHINA ، وحرفياً : « إله انزل بواسطة آلة » ، وهو تعبير يشير الى تدخل قوة خارقة للطبيعة في مسار العمل المسرحي . «م».

هذه الحال أن أرد بعبارة شاركو : « هذا لا يمنع من وجودها »[3] .

ان الحالة التي نشرت هنا نبذة من تاريخها المرضي ومن علاجها ليست بدورها من الحالات التي تتيح إدراك القيمة الحقيقية للتقنية التحليلية النفسية . فليس فقط قصر مدة العلاج ، الذي دام أقل من ثلاثة اشهر ، وانما عامل آخر يتعلق بطبيعة الحالة حال دون ان ينتهي العلاج بذلك التحسن – الذي يعترف به المريض وأقاربه – الذي نحصل عليه في العادة والذي يكون بقدر أو بآخر أدنى الى الشفاء الكامل . فنحن نصل الى مثل هذه النتائج الباعثة على الرضى حيثما تتشكل تظاهرات المرض وتستمر بفعل الصراع الداخلي فقط بين نزعات ترتبط بالجنسية . ففي مثل هذه الحالات نلحظ تحسناً في وضع المرضى بقدر ما نسهم في حل مشكلاتهم النفسية عن طريق تحويل المادة النفسية الإمراضية الى مادة سوية . لكن مسار العلاج يختلف تماماً حيثما تعمل الاعراض في خدمة دوافع خارجية تتصل بحياة المريض ، على نحو ما كشفت عنه حالة دورا خلال العامين المنصرمين . وقد تأخذنا الدهشة ، بل حتى الحيرة ، بسهولة اذا ما وجدنا حالة المريض لا تسجل تغيراً ملحوظاً ، حتى في حال قطع شوط متقدم جداً في التحليل . والواقع أن الموقف ليس خطيراً الى هذا الحد ؛ فالاعراض لا تختفي في اثناء العمل التحليلي ، وانما بعيد ذلك بقليل ، حينما تنقطع الصلات بين الطبيب والمريض . فتأخر الشفاء او التحسن لا مرجع له في الواقع إلا شخص الطبيب وحده .

ولا بد لي من اضافة شيء آخر كيما اجعل هذا الأمر مفهوماً . فبوسعنا القول بصفة عامة إن إنتاج أعراض جديدة يتوقف في اثناء العلاج التحليلي النفسي . غير ان انتاجية العصاب لا تخمد البتة ، وانما تمارس وظيفتها باستحداثها حالات نفسية خاصة ، لاشعورية في غالبيتها ، نستطيع أن

---

٣ – بالفرنسية في النص . «م».

نطلق عليها اسم **التحويلات** TRANSFERTS .

فما هذه **التحويلات** ؟ انها طبعات جديدة ، نسخ من النزعات والتخييلات التي يتحتم إيقاظها وسوقها الى الشعور مع تقدم التحليل ، وخاصيتها المميزة لها إحلالها شخص الطبيب محل شخص معروف للمريض من قبل . وبعبارة أخرى ، ان عدداً غير قليل من الخبرات النفسية السابقة يعاش من جديد ، ولكن ليس كخبرات ماضية ، بل كعلاقات راهنة بشخص الطبيب . وثمة تحويلات لا تختلف في شيء عن نموذجها الاصلي من حيث مضمونها ، باستثناء إبدال الشخص . هي اذن ـ برجوعنا الى الصورة المجازية عينها ـ مجرد طبعات متكررة او نسخ طبق الأصل . وثمة تحويلات اخرى تتم بمزيد من الفن والبراعة ، فمضمونها يطرأ عليه ضرب من التخفيف ، أو **إسماء** كما أسميه ؛ بل انها قد تغدو شعورية باستنادها الى خاصية واقعية ـ تحسن استغلالها ـ في شخص الطبيب أو في الظروف المحيطة به . وعندئذ تكون هذه التحويلات طبعات منقحة ومصححة ، لا مجرد طبعات مكررة .

لو تأملنا في نظرية التقنية التحليلية النفسية ، لاتضح لنا ان التحويل ضرورة حتمية تنبع منها . وحتى من الناحية العملية لا نجد بدأً من التسليم باستحالة تحاشي التحويل بأي وسيلة من الوسائل ، وبضرورة محاربة هذا النتاج الجديد للمرض مثلما حاربنا نتاجاته السابقة . غير أن هذا الجزء من العمل التحليلي هو الاصعب والأشق . فتفسير الأحلام ، واستنباط افكار وذكريات لاشعورية من تداعيات المريض ، وغير ذلك من طرائق التأويل والترجمة ، أمور يسير تعلمها ؛ والمريض نفسه هو الذي يقدم على الدوام المادة والنص . غير أنه من الواجب ، بالمقابل ، استشفاف التحويل بدون مساعدة المريض ، وعلى هدى إشارات وعلائم طفيفة ، مع تحاشي الاستنتاجات التعسفية . ومع ذلك ، لا سبيل الى تفادي التحويل ، لأنه يستخدم من قبل المريض في نصب جميع العوائق التي من شأنها أن

تجعل المادة بعيدة المتناول ، ولأن الاحساس بالاقتناع بصحة الأسيقة التي أعيد بناؤها لا يتولد لدى المريض إلا بعد حل التحويل .

قد يميل بعضهم الى ان يرى أن من المحاذير الخطيرة للطريقة التحليلية ، التي هي بحد ذاتها مضنية بغير ذلك ، كونها تزيد في عناء الطبيب باستحداثها نوعاً جديداً من الظاهرات النفسية المرضية . بل قد ينزع بعضهم الى ان يستنتج من ذلك ان العلاج التحليلي النفسي يمكن ان يلحق اذى بالمريض من جراء وجود التحويل . وهذان الاعتباران مغلوطان كلاهما . فعناء الطبيب لا يزداد بسبب التحويل ؛ فسيان لديه ـ ما دامت مهمته ان يتغلب على ميل معين لدى المريض ـ ان يفصح هذا الميل عن نفسه باتجاهه ، هو الطبيب ، أوباتجاه أي شخص آخر . كذلك ، لا يفرض العلاج التحليلي على المريض ، بفعل التحويل ، جهوداً ما كان له ان يتجشمها . فلئن كانت الاعصبة تشفى ايضاً في المصحات التي لا تعتمد أية طريقة تحليلية نفسية ، ولئن قيل إن الهستيريا تشفى لا بالطريقة، بل بالطبيب ، ولئن كان ضرب من التبعية العمياء والتعلق الدائم يتجلى في العادة لدى المريض تجاه الطبيب الذي خلصه من أعراضه بالايحاء التنويمي ، فإن التفسير العلمي لذلك انما يكمن في **التحويلات** التي تعتمل بصورة مطردة لدى المريض تجاه شخص الطبيب . والعلاج التحليلي النفسي لا يخلق التحويل ، وكل ما يفعله أنه يزيح النقاب عنه مثلما يزيحه عن سائر الظاهرات النفسية الخبيئة . وإن ما يميز طرائق العلاج الاخرى عن التحليل النفسي يقتصر على ما يلي : إن المريض لا يستدعي تلقائياً وعفوياً ، في اثناء هذه المعالجات ، إلا التحويلات العطوفة والودودة خدمة لشفائه ؛ وحيثما تعذر عليه ذلك ، سارع الى الانفصال عن طبيبه الذي يبدو له في هذه الحال سمجاً ثقيل الظل ، دون ان يتأثر به . أما في المعالجة التحليلية النفسية ، بالمقابل ، فإن الميول كافة ، بما فيها الميول العدائية ، لا بد ، نظراً الى اختلاف عمل الدوافع ، من أن توقظ وتبتعث، بحيث يمكن

للتحليل استخدامها بعد ما تصير شعورية ؛ وهكذا يتم باستمرار تحطيم التحويل من جديد . وهذا التحويل ، الذي كان مقيضاً له ان يكون أعتى العوائق في وجه التحليل النفسي ، يغدو أقوى حليف له ، إذا أفلح الطبيب في استشفاف وجوده كل مرة وفي ترجمة مغزاه للمريض[٤].

لم يكن محيص لي عن الكلام عن التحويل ، إذ بهذا العامل وحده يمكن تفسير خصائص تحليل دورا . فميزة هذه الحالة التي تؤهلها لأن تكون أول عمل ينشر كمدخل الى التحليل النفسي، وأعني بها وضوحها الفائق ، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعيبها الكبير الذي كان السبب في ايقاف التحليل قبل اوانه.ذلك انني لم انجح في السيطرة على التحويل في الوقت المناسب؛فما أبدته دورا من تلهف الى ان تضع في متناولي جزءاً من المادة الإمراضية قد جعلني أسهو عن إيلاء الانتباه للعلائم الاولى للتحويل الذي كانت تهيء له بواسطة جزء آخر من تلك المادة الإمراضية عينها،وهو جزء بقي مجهولاً مني : وقد بدا واضحاً في بداية الأمر أنني حللت في مخيلتها محل أبيها ، وهذا شيء ميسور فهمه ، نظراً الى فارق السن بينها وبيني . وعلى هذا فقد كانت تقارنني شعورياً به ، وتسعى الى ان تستوثق بلهفة مما اذا كنت صادقاً معها كل الصدق ، لأن اباها ، كما كانت تقول ، كان « يفضل على الدوام التكتم والطرق الملتوية » . وحين طرأ الحلم الأول ، الذي رأت نفسها فيه وهي تنذرني برغبتها في ترك العلاج مثلما كانت تركت من قبل منزل السيد ك ، كان ينبغي أن آخذ حذري وان أقول لها : « لقد قمت بتحويل من السيد ك إلي . فهل لاحظت أي شيء يحملك على الاعتقاد بوجود مقاصد سيئة لدي شبيهة بتلك التي هي عند السيد ك ، أبصورة مباشرة أم بصورة مسْماة ، أو هل راعك شيء مني او سمعت شيئاً عني

---

٤ ـ (حاشية اضيفت سنة ١٩٢٣) ـ ان تتمة ما قيل هنا عن التحليل موجودة في مقال تقني لي عن حب التحويل ، ١٩١٥ (سوف ننشر ترجمة نص هذا المقال في كتاب تقنية التحليل النفسي الذي يصدر قريباً . «م»).

قسرك على الميل إلي بعواطفك كما ملت بها من قبل نحو السيد ك ؟ » لو كنت فعلت ، لكان انتباهها انجذب الى واقعة جزئية ما في علاقتنا ، أو في شخصي أو في ظروفي ، تخفي شيئاً مماثلاً ، ولكنه أهم بكثير ، يتصل بالسيد ك ، ولكان التحليل ، وجد ، عن طريق حل هذا التحويل ، منفذاً له الى مادة جديدة ، مكوّنة في ارجح الظن من ذكريات أحداث واقعية . غير أنني أهملت هذا الإنذار الاول . وقلت في نفسي إنه لا يزال لدي متسع من الوقت ، إذ لم تظهر علائم اخرى للتحويل ولم تستنفد مادة التحليل بعد . وهكذا فجأني التحويل على حين غرة ، وانما بسبب ذلك العامل المجهول الذي كان يذكرها في شخصي بالسيد ك انتقمت مني ، مثلما كانت تبغي ان تنتقم منه ، وتركتني اعتقاداً منها بأنها خُدعت وتُركت من قبله . وهكذا نشّطت فاعلية جزء مهم من ذكرياتها وتخييلاتها ، بدلاً من ان تكاشفني به في جلسات علاجها . ولا أستطيع بطبيعة الحال أن أعرف ما كان ذلك العامل المجهول ، وانما افترض انه كان يتصل بالمال ، أو بالغيرة من مريضة بقيت على صلة بأسرتي بعد شفائها . وحيثما يتأتى لنا ان ندمج التحويل في التحليل في وقت مبكر ، يدور التحليل ببطء اكبر ويغدو أقل وضوحاً ، لكنه يكون اقوى مناعة ضد مقاومات فجائية عاتية .

ينطوي حلم دورا الثاني على عدة تلميحات واضحة الى التحويل . فحين سردته لي كنت اجهل بعد (ولم أعرف ذلك إلا بعد يومين) انه لم يعد امامنا غير ساعتين من العمل : وهي الفترة نفسها التي قضتها امام لوحة مادونا السكستينا والتي قاست بها (إذ صححتها الى « ساعتين » بدلاً من « ساعتين ونصف ») الطريق الذي كان عليها ان تقطعه لتدور حول البحيرة . وكان توقها إلى الوصول وانتظارها في الحلم ـ وهما عنصران يتصلان بالمهندس الشاب في المانيا وينبثقان من اضطرارها الى الانتظار الى ان يتمكن السيد ك من الزواج منها ـ قد تجليا في التحويل قبل ذلك ببضعة أيام . فالعلاج ، كما صارت تقول ، قد دام فترة أطول مما ينبغي ،

وهي لن تستطيع أن تصبر كل هذه المدة ، على حين انها كانت في الاسابيع الاولى على درجة كافية من المنطق لكيلا تعترض وتحتج لما كنت أخبرها أن الوقت اللازم لبرئها ربما امتد الى سنة . كذلك فإن رفضها في الحلم ان يصحبها الرجل ، ورغبتها في أن تمضي بمفردها ـ وهما عنصران يرجعان ايضاً الى زيارتها لمتحف درسدن ـ كان محتماً ان يطرقا سمعي في اليوم الذي حددته بنفسها . وكان معنى هذا الرفض كما يلي : « ما دام الرجال كلهم على هذه الدرجة من الشناعة ، فإنني أفضل ألا أتزوج ، وذلك هو انتقامي »(٥).

في الحالات التي تُحوَّل فيها حفزات الى القسوة والانتقام، كانت قد استخدمت من قبل في تكوين الاعراض، الى شخص الطبيب في أثناء العلاج قبل ان يتسنى له الوقت اللازم لفصلها عن شخصه بإرجاعها الى مصادرها ، ليس لنا أن ندهش ان استعصت حالة المـرض على التأثر بجهود الطبيب العلاجية . إذ هل من طريقة تنتقم بها المريضة من طبيبها

٥ ـ (حاشية اضيفت سنة ١٩٢٣) ـ كلما ابتعدت في الزمن عن اليوم الذي أنهيت فيه هذا التحليل ، اتضح لي بمزيد من الوثوق ان خطئي التقني يكمن في الإغفال التالي : فقد تهاونت في ان اكتشف في الوقت المناسب وفي ان أكاشف المريضة بأن حبها الجنسي المثلي (حب المرأة للمرأة) للسيدة ك هو نزعتها النفسية اللاشعورية الاقوى . وقد كان ينبغي أن احزر انه ما كان لشخص آخر غير السيدة ك ان تكون المصدر الرئيسي لمعارفها الجنسية ، تلك السيدة نفسها التي اتهمت فيما بعد بأنها مشغوفة اكثر من اللازم بمثل هذه المواضيع . وبالفعل ، كان مما يلفت النظر ان تكون مطلعة على كل ما هو « مشين » من المواضيع ، وأن تجهل في الوقت نفسه المصدر الذي استقت منه معرفتها . وكان ينبغي علي ان أتخذ من هذا اللغز نقطة انطلاق فأفتش عن الدافع لهذا الكبت الفريد في نوعه . ولو فعلت لكان الحلم الثاني كشف لي عنه . فشهوة الانتقام الجارفة التي عبر عنها هذا الحلم كانت موائمة ، اكثر من اي شيء آخر ، لحجب النزعة المضادة : الكرم الذي غفرت به خيانة صديقتها الحبيبة واخفت به عن الجميع واقع ان هذه الصديقة هي نفسها التي أطلعتها على المعارف التي استخدمت فيما بعد في تسويد صفحتها (صفحة دورا) . والحق انني قبل ان اتبين اهمية الميول الجنسية المثلية لدى المعصوبين ، كنت اخفق في كثير من الاحيان في المعالجات أو اسقط في حيرة تامة .

أفضل من ان تجعله يتبين في شخصها بالذات كم هو عاجز وفاشل ؟ ومع ذلك ، فإني أرى انه لا يجوز الغلو في الاستخفاف بالقيمة الشفائية حتى لمعالجة جزئية كمعالجة دورا .

فبعد خمسة عشر شهراً من نهاية هذه المعالجة ومن كتابتي هذا النص جاءتني لأول مرة أخبار عن صحة مريضتي وعن نتائج علاجي لها . ففي يوم ليس تاريخه بعديم الدلالة ، وهو الأول من نيسان ـ نحن نعلم ان التواريخ لم تكن قط عديمة الاهمية لديها ـ حضرت الي لتكمل قصتها ولتسألني من جديد العون . غير أن سيماءها كانت تنم من النظرة الأولى عن ان طلبها هذا ليس مما يمكن ان يحمل على محمل الجد . قالت انها بقيت طيلة الاسابيع الاربعة أو الخمسة التي تلت ايقاف العلاج « مقلوبة الحال رأساً على عقب » . ثم طرأ عليها تحسن كبير ، فتباعدت نوباتها وراق مزاجها . وفي شهر ايار من العام المنصرم توفي أحد طفلي السيد ك ، وهو الذي كان على الدوام معتل الصحة . فكان هذا المصاب ذريعة لها لتقوم بزيارة تعزية لآل ك ، فاستقبلها الزوجان وكأن شيئاً لم يحدث خلال السنوات الثلاث الماضية . عندئذ تصالحت معهما ، وانتقمت منهما ، ووضعت حداً للموقف على نحو يبعث على الرضى . فقد قالت للسيدة ك : « أعلم أنك على علاقة ببابا » ، فما انكرت هذه ذلك . وأرغمت السيد ك على الإقرار بمشهد البحيرة ، بعد ما كان ماري في أن يكون قد حدث ، ونقلت الى أبيها هذا النبأ فارتد اليها اعتبارها . ومنذئذ لم تعد وصل ما انقطع بينها وبين تلك الأسرة .

دامت صحتها في احسن حال الى منتصف تشرين الأول . وعندئذ انتابتها نوبة جديدة من انحباس الصوت، استمرت اسابيع ستة . دُهشتُ وسألتها عن سببها ، فعلمت ان هذه النوبة سبقها رعب عنيف . فقد رأت عربة تدهس عابر سبيل . واخيراً اقرت بأن ضحية الحادث لم يكن الا السيد ك نفسه . التقته يوماً في الشارع ، وتقدم نحوها في موضع يكثف فيه المرور ، ثم وقف مضطرباً امامها ، وفي هذه اللحظة من شرود البال

قلبته عربة[٦]. وأمكنها مع ذلك أن تطمئن نفسها الى أنه خرج من الحادث دونما اصابة خطيرة . وذكرت لي أنه كان لا يزال يساورها انفعال طفيف متى ما سمعت أحدهم يتكلم عن علاقة السيدة ك بأبيها ، وان كانت عزفت عن التدخل فيها . وهي الآن مستغرقة في دروسها ، وليس في نيتها ان تتزوج .

لقد قدمت تطلب عوني على ألم عصبي وجهي أيمن تقاسي منه ليل نهار . سألتها : منذ متى بدأت تعانين منه، فأجابتني : « منذ أسبوعين بالضبط »[٧]. فابتسمت ، إذ استطعت أن أبينٍ لها أنها قرأت ، قبل أسبوعين بالضبط ، نبأ في الصحف يتصل بي[٨]، فأكدت لي الأمر (عام ١٩٠٢) .

كان هذا الألم العصبي الكاذب يعادل إذن عقاباً ذاتياً ، تبكيتاً على الصفعة التي كانت وجهتها قبلاً الى السيد ك ، وكان ذا صلة بتحويل مشاعرها الانتقامية نحو شخصي . وإني لأجهل ما نوع العون الذي كانت تريده مني ، لكني وعدتها بأن أغفر لها حرمانها إياي من متعة تخليصها بصورة اكثر جذرية من دائها .

انقضت سنون منذ تلك الزيارة . وتزوجت الفتاة ، وان لم تخدعني العلائم جميعها فإن من تزوجت منه كان ذلك الشاب الذي ألمعت اليه تداعياتها في بداية تحليل الحلم الثاني . وان يكن الحلم الأول قد أشار الى الانفصال عن الرجل الحبيب والعودة الى الأب ، أي الهرب من الحياة الى المرض ، فإن ذلك الحلم الثاني كان يعلن عن انها على وشك الانفصال عن أبيها لتستردها الحياة من جديد .

---

٦ ـ يقدم هذا الحادث مساهمة طريفة في حالات الانتحار غير المباشر التي تكلمت عنها في كتابي : **علم نفس امراض الحياة اليومية** .

٧ ـ انظر دلالة هذه الفترة الزمنية وصلتها بفكرة الانتقام في تحليل الحلم الثاني .

٨ ـ الارجح ان هذا النبأ هو نبأ تعيين فرويد استاذاً جامعياً «م».

٤٠٠٠/٨١/٨٥٥